القوس العذراء

محمود محمد شاكر

□□□

إلى صديقٍ لا تَبْلى مودَّتُه:

أمّا بَعْدُ، فإني لم أكنْ أتوقَّعُ يومئذ أن ألقاكَ. وإذا كُنتَ قد أُوتيتَ حياء يغلُبك عند البغْتَة على لسانك، حتى يُعوزَك(١) ما تقول، فقد أُوتيت أنا ضَرباً ثَرثاراً من الحياء، يُطْلق لساني أحياناً عند البَغْتَة، بما لا أُحبُّ أن أقول، وبما لا أدري كيف جاء، ولم قيل! كنت خليقا يومئذ أن أقول غير ما قلت، ولكني وجدت شيئا منك يَنْسَرِبُ(٢) في نفسي فيُثيرها، حتى يدورَ حديثي كُلُّه على إتقان الأعمال التي يُتَاح للمرء أن يزاولهَا ـ في لمحة خاطفة من الدهر، نُسميها نحن الناسَ : العُمُر!!

ياله من غُرُور! بيدَ أنّ هذا الحديثَ أَبَى إلا أن ينقلبَ عائداً معيَ في الطريق، يُسايرني، ويُصاحبني، ويُؤنس وَحْشتي، ويُسرُّ إليَّ بوَسْوسة خفية من أحاديثه التي لا تتشابَه، والتي لا تَتَناهى والتي هي أيضا لا تُمَلُّ. وإذا كانتْ ثرثرةُ حيائي قد صَكّت مَسامعك ببعض عُنفي وصَرَامتي، فعَسى أن يبعثَ في نفسك بعضَ الرضى، ما أرْويه لك من بقايا تلك الأحاديث التي رافقتني منذُ فارقتكَ إلى أن استقرت بي الدارُ، ثم طارت عني إلى حيثُ يطير كُلُّ فِكْرٍ، وغابتْ حيثُ يغيب!

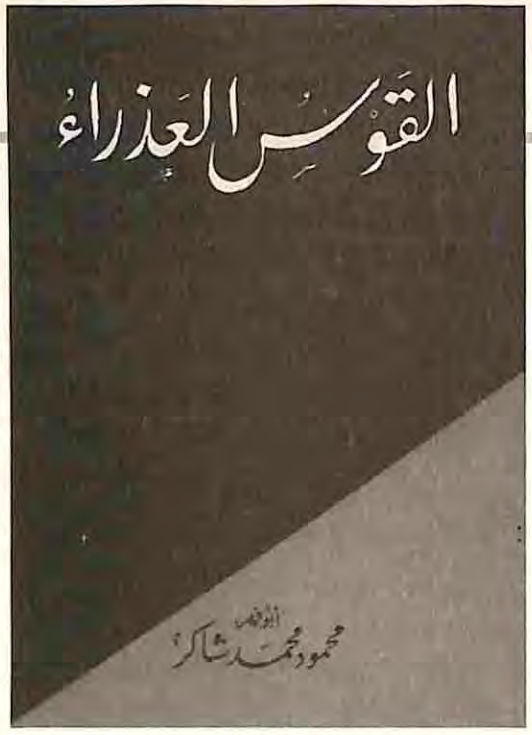

●●●

الإنسانُ خَلقٌ عجيبٌ!! كلّ حَيٍّ، بل كُلّ شيء مخلوق، يسير على نَهْج(٣) لاَحب لا يختلّ، يُؤَيِّده هَدْيٌ صادق لا يتبدّل. ومهما تباينَتْ مسالكُهُ في حياته، وتنوّعت أعمالُه في حياطة مَعيشته، فالنهجُ في كل دَرب من دُروبها هُوَ هُوَ لاَ يتغَيروالَهَدْي في كل شأن من شؤونها هو هو لا يتخلّفُ(٤).

تُولد الذَّرَّة(٥) من النَّمال، وتنمو، وتبدأ سيرتها في الحياة، وتعمل فيها عملَها الجدَّ، وتَفرغ من حَقّ وجُودها، ثم تقضي نَحبَها(٦) وتموت. هكذا مُذْ كانت الأرضُ وكانت النَّمال : لا تتحوّل عن نَهج، ولا تَمْرقُ(٧) من هَدْي. وتاريخ أحدثها ميلاداً في مَعْمَعة الحياة، كتاريخ أعرقِ أسلافها هَلاَكاً في حَومة الفَنَاء. لا هي تُحدث (٨) لنفسها نَهجاً لم يكنْ، ولا هي تبتدعُ لوارثها هَدْيا لم يتقدَّمْ.

فسَلْ كل حيٍّ : كيف تعملُ؟ ولمَ تعملُ؟ ومَن الذي علَّمَكَ وهَدَاك؟ ومَن الإمامُ الذي سَنَّ لك الطريقَ(٩)؟ وبأيّ عبقريّة يأتي إبداعُك؟ ولمَ كان عملُك نَسَقاً(١٠) مُنْقادًا لا يتغير؟ وكيف كَانتْ مهارتُك تُراثاً(١١) مُؤَبَّدًا لا يتبدل؟ وحذْقُك طَبْعاً راسخاً لا يتحوّل؟ ولم صارتْ سُنّة(١٢) الأوائل منكم لزَاماً على الأواخر؟ ومنهاج(١٣) الغابرين شَرَكاً للوارثين! بل كيف أخطأ الآخرُ منكُمْ أن يَسْتدرك علَى الأوّل؟ والخَلفُ أن يُنَافس صَنعةَ السَّلَف؟ وعَجَباً إذنْ! كيف صارَ كُلّ عمل تَعْمَله مُتْقناً، وأنت لم تَجْهَدْ في إتقانه؟ وأنى بلغتَ فيه الغاية، وأنت مسلوبٌ كلّ تدبير ومَشيئة؟ وما أنتَ وعملُك؟ أتحبُّه وتألفُه؟ أم تَشْنَؤُه(١٤) وتسأمُه؟ أتُخامرُك نَشْوة الإعجاب؟ أبدعتَ فيه؟ أم تنتابُك لَوْعة الحُزْن إذ أصابه ما يُتْلفُه أويؤْذيه؟ ألم تسألْ نفسكَ قطُّ : فيمَ أعملُ؟ ولمَ خُلقت؟ وفيمَ أعيشُ؟

وأنا على يقين من أنّك لن تسمعَ جواباً إلا الصَّمْتَ المُستنكرَ، والذُّهولَ المُعرضَ، والصمَمَ المُسْتَخفَّ الذي لا يَعْبأ.

●●●

إلاّ الإنْسانُ!! إلاّ الإنْسان!!

ليتَ شعْري كيف كَانَ مَدْرَجُ(١٥) أوّله على أمّه الأرض؟ وأيُّ هَدْيٍ كان لَفَرطه في مَطْلَع الفجْر؟

إنّه ككلّ حيّ، لم يُخْلَق سُدًى(١٦) ولم يُتْرك هَمَلاً. سلَك له ربُّه النَّهْجَ الأوّل(١٧) حتى يتكاثر، وآتاهُ الهدْيَ القديمَ حتّى يَسْتَحْكمَ، وسدَّد يَدَيْه حتى يشتدّ، وأنارَ بَصيرتَه حتى يَسْتَكمل، وأنْبطَ(١٨) فيه ذخائر الفطْرة حتى يَسْتبحر، وفَجَّرَ فيه سَرائرَ الإتقان حتى يَسُودَ ويتملَّك، وعلّمه البَيانَ حتى يَسْتَفْهمَ، وكرَّمه بالفَتْح حتى يَتَغلَّب.

فلَما ثَبَتَ عليها وتأيَّد(١٩)، وتأَّل فيها وعَمَر، نَظَرَ إلى معروفها فاعتَبَر، وهجَم على مَجهولها فاستنكَرَ، فكأنَّهُ من يومئذ حادَ(٢٠) عن النهج الذي لا يختلّ، ومَرَق من الهَدْي الذي لا يتبدّل.

ابتُلِيَ من يومئذ فتَمرَّس(٢١)، وأُسلم لمَشيئته فتحيَّر. جارَ وعَدَل، فعَرف وجرَّبَ. أخطأ وأصاب، ففكّر وتدبر. نزع(٢٢) إلى النهج الأوّل، فأخفَق وأدرك. تاق إلى الهدي القديم، فأعْطي وحُرم. احتَفر(٢٣) ذخائر الفطرة، فأكْدَت عليه تَارَةً ونَبَعْت. التَمس شواردَ الإتقان، فندَّتْ(٢٤) عليه مرَّةً واستقادتْ. وإذا كلُّ صُنْع يتقاضاه حَقُّ إحسانه، وكلّ عمل يَحنُّ به إلى قرارة إتْقانه. فعندئذ حاكَ الشكُّ في صدْرِ اللاحق، حتى قَدَحَ في تمام صُنْع السَّابق، فاسْتدرك عليه. وقلقَ الوارثُ، حتى خاف تقصيرَ الذاهب، فاستنكفَ الإذعانَ إليه. فكذلك جاشتْ نفسُه(٢٥)، حتى اندفقت صُبابةٌ منها فيما يعمل، وتَضَرَّمَ قلبُه، حتى ترك ميسَمه(٢٦) فيما أنشأ فتَدلَّهَ بصُنْع يديْه، لأنّه استودعه طَائفة من نفسه، وفُتن بما استَجَاد(٢٧) منه، لأنه أفْنَى

فيه ضراماً من قلبه. وإذا هو يَسْتَخِفُّهُ الزَّهْوُ(٢٨) بما حَازَ منه ومَلَك، ويُضنيه الأسَى عليه إذا ضاع أوْ هلك.

هذا هُوَ الإنسانُ وعملُه. فإذا دبَّت بينهما جَفْوة تَخْتل(٢٩) النَّفس حتى تَمَلّ وتَسْأم، أوْ عَدتْ اليهما(٣٠) نَبْوة تُراودُ القلبَ حتى يَميل ويُعرضَ، انطمستْ عندئذ أعلامُ(٣١) النهج الأوّل، وركدتْ بَوارقُ (٣٢) الهدْيِ المُتقادم، وبقي الإنسانُ وحيداً مُلوماً محسوراً لا يزال يسأل نفسه: فيمَ أعملُ؟ ولم خُلقت؟ وفيمَ أعيش؟ فما يكون جوابُه إلاّ حَيْرةً لا تَهْدأ، ولَهيباً لا يَطفأ، وظَلاماً لا يَنْقشع.

●●●

بل حَسْبي وحسْبك. فلقد خشيتُ أن تقول لي: إنّما أنتَ تحدّثني عن الفنّ، ـ فهذه صفة أهله ـ لا عن العمل، فليس هذا من نَعْته! وكأنّي بك قد قلتَ: إنّ الفنّ تَرَفٌ مُسْتَحْدَثٌ، أما العمل فَشقاء مُتقادم. هذا مَما تَعجّله الإنسانُ وعاناهُ لقَضاء حاجته، وذاك مّما تَأنّى فيه وصافاه(٣٣) للاستمتاع بلذّته. والإنسان إذا جوَّدَ العمل، فمُنْتهَى همّه أن يجعلَه على قضاء مآربه أعْوَنَ، أو يكونَ له في أسباب معيشته أنجح وأربح. أمّا الفنّ، فثَمرة لغَير شجرته، يَسْقيها متأنّق(٣٤) من ينابيعَ ثرّة في وُجْدانه، وينْضجُها مشغوفٌ بلاعج منْ وَجْده وافتتانه، في غير مَخافة مَرْهوبة، ولا مَنْفعة مَجْلوبة، فذاك إذَن بطبيعته مستهلكٌ مُمتهن(٣٥)، وهذا لحرمة نَشْأته مَذْخورٌ(٣٦) مُكرّم.

وأقول : بل أنت تحدّثني عن الإنْسان وقد فَسَق (٣٧) عن تلاد فطْرته، واستَغْواه(٣٨) الشُحّ حتى انْسلخ من ركازَ جبلّته. غَرَّهُ ما أُوتيَ من التدبير، فاقتحم على غَيْب مُدبَّر، يَعْتسفُه بسَفاهة جُرأته. واستخفّه ما أُعين به من المَشيئة، فهجَم على خَير مبذول، يستكثر منه بضَراوة(٣٩) نَهْمته. فانْبَتَّ منْ يومئذ في فَلاة مَطْموسة بلا دَليل، يَظلُّ يكدح فيها كدْحًا حتى يُنادَى للرَّحيل!

جَاء مُيسَّراً لشيء خُلقَ له، فظلمه حقّه حتى عَضل(٤٠) بأمره فتعسَّر، وهُديَ مسددًا إلى غاية، فغَفل عنها حتى تبدّد خَطوه واختلّ. ولو دانَ الإنسانُ بالطاعة لفطْرته المكنونة فيه منذُ وُلد، لأفْضى إلى خَبْئها(٤١) التَّليدَ إذا ما استْوىَ نَبْتُه واستحصَد. ولصارَ كلّ عمل يَعْتَملُه(٤٢)، تدريبا لما استْعصى منه حتَّى يلينَ ويَنْقادَ، وتهذيباً لما تراكم فيه حتى يَرفَّ(٤٣) ويتوهَّج. فإذا دَرب عليه وصَبَر، أزال الثرى عن نَبْع مُنْبثق، فإذا ألحّ ولم يَملّ، انشقّت فطرتُه عن فَيْض متدفّق. ويومئذ يُسْفر(٤٤) لعينيه مَدَبُّ النَّهج الأوّل، بعد دُرُوسه وعفائه، ويستشْري في بَصيرته ومَيضُ الهَدْي المتقادم، بعد ركْدته وخفائه. وإذا كلّ عمل يَفْصم عنْه مُتْقنًا، وكأنّه لم يجْهد في إتْقانه، وإذا هو مُشْرفٌ فيه على الغاية، وكأنه مسلوبٌ كلّ تدبير ومَشيئة، ولكنّه لايفْصمُ عنه حين يفصم، إلاّ مطْويًا على حُشاشة(٤٥) من سرّ نَفْسه وحياته، موسوماً بلوْعة مُتَضرمةً على صَبْوة(٤٦) فنيتْ في عشرته ومُعاناته.

فالعملُ كما تَرَى، هو في إرث(٤٧) طَبيعته فنٌّ مُتمكّن، والإنسانُ بَسليقة(٤٨) فطْرته فنّان مُعْرقٌ.

●●●

وإنّي لمُحدّثك الآنَ عن رجُل من عُرض البشَر(٤٩)، يَتَعيش بكدّ يديْه، صابرَ(٥٠) الفاقة عامَيْن، يعمَل عملاً يُفْلتُ نَفَسًا من الغنى إليه، أغواهُ ثَراء يَبْهرهُ، فما كاد يُسْلمه للبَيْع حتى بكَى عليه.

لم أعْرفُه، ولكن حدّثني عنه رجُلٌ مثْلُه عَمَلُه البَيان، ذاك فطْرتُه في يَدَيه، وهذا فطْرتُه في اللّسان.

●●●

هذا عامرٌ أخو الخُضْر : توجّستْ(٥١) به الوحْشُ من عرْفانها شدّةَ نقْمته، جاءتْ ظامئة في بَيْضة الصيف(٥٢)، فَراعها مَجْثمهُ في قُتْرته. قليلُ التّلاد، غيرَ قوس أو أسْهُم، خفيّ المهاد، غير مُقْلة تتضرّم. تبيّنتْ لمْح عَيْنيه، فانقلبتْ عن شَريعة الماء هاربة، ذكرت نكاية مَرْماهُ، فآثرت ميتةَ الظّمأ على فتْكة الأسْهُم الصائبة.

وما عامرٌ وقَوْسه؟!

١ ـ فَدَعِ الشَّمّاخَ يُنْبِئُكَ عن قُواسها البَائس في حَيْثُ أتاهَا:
٢ ـ أيْن كانتْ في ضَمير الغَيْب منْ غَيل(٥٣) نَماهَا؟
٣ ـ كَيْف شقّتْ عينُهُ الحجْبَ إليْها، فاجْتَباهَا(٥٤)؟
٤ ـ كَيْفَ يَنْغَلُ(٥٥) إلَيْها في حَشا عيص وقاهَا؟
٥ ـ كَيْفَ أنحى(٥٦) نَحْوَها مَبْراتَهُ، حتى اخْتَلاهَا؟
٦ ـ كَيْفَ قَرّتْ في يديه، واطْمأنّتْ لفَتَاهَا؟
٧ ـ كَيْفَ يَسْتَودعُها الشَّمْسَ عَامَيْن.. تَرَاهُ وَيَرَاهَا؟
٨ ـ كَيْفَ ذاقَ البُؤْس.. حتى شَربتْ ماءَ لحَاها(٥٧)؟
٩ ـ كَيْفَ نَاجَتْهُ.. وَنَاجَاها.. فَلاَنَتْ.. فَلوَاهَا؟
١٠ ـ كَيْفَ سَوّاهَا.. وَسَوّاهَا.. وَسَوّاهَا فَقَامَتْ.. فَقَضَاهَا؟
١١ ـ كَيْفَ أعطَتْهُ منَ اللّين، إذا ذاقَ(٥٨)، هَوَاهَا؟

القوس العذراء

١٢ ـ أيُّ ثَكْلَى أَعَـولَتْ إذْ فَـارَقَ السَّـهْمُ حَـشَـاهَا؟
١٣ ـ كَـيْفَ يُرْضِـيـه شَـجَـاهَا؟ كَـيْفَ يُصْـغِي لبُكَاهَا؟
١٤ ـ كَـيْفَ رِيعَ الوَحْشُ مـن هَاتـف سَـهْـم إذْ رَمَـاهَا؟
١٥ ـ كَـيْفَ يَخْشَى طَارِقَـاً، فِي لَيْلة يَهْـمِي(٥٩) نَدَاهَا؟
١٦ ـ كَـيْفَ رَدَّاهَا(٦٠) حَـرِيرَ البَـزِّ حِـرْصَـاً وَكَـسَـاهَا؟
١٧ ـ كَـيْفَ هَزَّتْـهُ فَـتَـاهَا؟ وَتَـعَـالَى وَتَبَـاهى؟
١٨ ـ كَـيْفَ وَافَى مَـوْسَـمَ الحج بِـهَـا؟.. مَـاذَا دَهَـاهَا؟
١٩ ـ أيُّ عَـيْن لَمَـحَتْ سِرَّهُمَـا المُضْـمَـرَ؟.. بَلْ كَـيْفَ رَآهَا؟
٢٠ ـ انبَـرَى كَـالصَّـقْـر يَنْقَضُّ إلَيـهَـا.. فَـأَتَـاهَا!!
٢١ ـ مَـسَّـهَـا ذُو لَهْـفَـة تَـخْـفِي... وَإنْ جَـازَتْ مَـدَاهَا
٢٢ ـ قَـالَ: سُـبْـحَـانَ الـذي سَـوَّى!! وَأَفْـدِي مَـنْ بَرَاهَا
٢٣ ـ أَنْـتَ..!! بِعْـنِـيـهَـا..
ـ نَعَمْ إن شئْتَ!! [تَـعْسَا وَسَـفَاهَا](٦١)
٢٤ ـ قَـالَ : بِالتِّـبْـرِ.. وَبِالـفِـضَـة، بِالخِـزِّ.. وَمَـا شِـئْتَ سِـوَاهَا
٢٥ ـ بِثِـيَـاب الخَـال(٦٢).. بِالعَـصْبِ المُوَشَّى.. أتَـرَاهَا؟
٢٦ ـ وَأَدِيم(٦٣) المَاعِـزِ المَقْـرُوظ.. أرْبَى مَـنْ شَـرَاهَا!
٢٧ ـ [كَيْفَ قَـالَ الشَّيخُ؟!.. كَلاَّ! إنَّهَا بِعْـضِي وَالمَالُ؟. بَل المالُ فَدَاهَا
٢٨ ـ إنَّها الـفاقةُ والبُـؤسُ!!.. نَعَمْ!.. هذا غَنًى!!.. كَـلاَّ وشَاهَا (٦٤)
٢٩ ـ بَلْ كَـفَـاني فَـاقَـةٌ.. لاَ!.. كَـيْفَ أَنْـسَـاهَا؟.. وَأَنَّى؟! وَهَوَاهَا]
٣٠ ـ لَمْ يَكَـدْ.. حَـتَّى رَأى نَـاسَـا، وَهَمْـسَـاً، وَشِـفَـاهَا:
٣١ ـ بَايِع الشَّـيْخَ! أَخَـاكَ الشَّـيْخَ!.. قَـدْ نلتَ رِضَـاهَا!!
٣٢ ـ إنَّهُ رِبْـحٌ..! فَـلاَ يُفلتْكَ!.. أعطَى، واشْـتَـرَاهَا(٦٥)!
٣٣ ـ وَرَأَى كَـفَّـيـه صِـفْـراً، وَرَأى المَالَ... فَـتَـاهَا(٦٦)
٣٤ ـ لَمْـحَـةً...، ثُمَّ تَـجَلَّى الشَّكُ عَنْهُ...، فَـبَكَاهَا!
٣٥ ـ وَرَثَـاها بِدُمُـوع، وَيحَـهُ! كَـيْـفَ رَثَاهَا؟!
٣٦ ـ فَـتَـوَلَّى.. وَسَـعِـيـرَ النَّـارِ يُخْـفِي وَلَظَاهَا!
٣٧ ـ حَـسْـرَةٌ تُطْوَى عَلَى أُخْـرَى.. فَـأَغْـضَى... وَطَوَاهَا!

●●●

فاسمعْ إذنْ صَدَى صوت الشمَّاخ:

٣٨ ـ تَجَـاوبُ عَنْهُ كُـهُـوفُ القُـرُون، تَرَدَّدَ فِـيـهـا كَـأنْ لم يَزَلْ
٣٩ ـ وَأَوْفَى عَلَى القِمَمِ الشَّـامِخَات: جِبَـالٌ مِنَ الشِّعْرِ مِنْهَا اسْـتَهَلْ(٦٧)
٤٠ ـ تَحَـدَّرُ أَنْغَامُـه المُرْسَـلاَتُ، أَنَغَـامَ سَيْلٍ طَغَـى وَاحتَـفَلْ(٦٨)
٤١ ـ رَأى حُـمرَ الوَحْشِ، فَـابْتَزَّهَا(٦٩) بِـلاَبِلَها مِنْ حَـدِيثِ الوَجَلْ
٤٢ ـ رَآهَا ظِمَـاءً إلَـى مَـوْرِد، فَـفَـزَّعَـهـا عَنْـه خَـوْفٌ مُـثَلْ(٧٠)
٤٣ ـ فَطَارتْ سِـراعَـا إلى غَـيْـرِه، بِعَـدْوٍ تَضَـرَّمَ حَـتى اشْـتَـعَل
٤٤ ـ فَلَم تَدْنُ حَـتَّى رَأتْ صَـائِدَين، فَـصَـدَّتْ عَـن المَوْت لما أَهَلّ
٤٥ ـ فَكَالبَرْقِ طَـارَتْ إلى مَأمَن عَلَى ذِي الأَرَاكَةِ(٧١) صَـافِي النَّهَلْ

.. فَـحَـلأهَا عَنْ ذِي الأَرَاكَـةِ عَـامِـرٌ
أَخُـو الخُضْـرِ، يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاحِـزُ
ـ قليلُ الـتِّـلاَدِ، غَـيْـرِ قَـوْسٍ وَأَسْـهُم؛
كَـأَنَّ الَّـذي يَرْمِي مِـنَ الوَحْـشِ، تَارِزٌ
ـ مُطِلاً بِـزُرْقٍ مَـا يُدَاوَى رَمِـيُّـهَـا،
وَصَـفْـرَاءَ مِنْ نَبْعٍ عَلَيْـهَـا أَلَجِـلاَئِزُ

٤٦ ـ فَكَيْفَ تَـدَسَّسَ هَذَا البَـيَـانُ حَـتَّى رَأى بِعُـيُـونِ الحُـمُـرْ؟
٤٧ ـ وَكَـيْفَ تَغَلْغَلَ هَـذَا اللسَـانُ وَبَيَّنَ عَنْ رَاجِـفَـاتِ الحَـذَرْ(٧٢)
٤٨ ـ لَوَاهَا(٧٣) عَنِ الرِّيِّ عِرْفَانُهَا أَخَا الخُـضْرِ، عِرْفَانَ مَن قَدْ عَقَلْ!
٤٩ ـ وَعَلَّمَـهـا أَيْنَ تُكْـوَى الجُنُوب بِنَـارِ الطَّبِـيـبِ لِدَاء نَزَلْ!
٥٠ ـ وَأَنَّ الخَصَاصَةَ(٧٤) قَوْسُ البَئِيس، إذا انْقَذَفَ السَّهْمُ عَنْهَا قَتَلْ!
٥١ ـ يُسَـابِقُ مُسْـتَنْهِضَـات(٧٥) الفِرَارِ فَـيَـقْتُلُهَـا قَبْلَ أَنْ تَنْتَـقِلْ!
٥٢ ـ فَـيُدرِكُـهَا المَـوتُ مَغْـرُوسَةَ قَـوَائِمُـهَا فِي الثَّـرَى... لَمْ تَزُلْ!
٥٣ ـ وَعَـرَّفَـهَـا أَنَّهُنَّ السِّـهَـامُ: زُرْقٌ تَـلأْلأُ أَوْ تَشْـتَـعِلْ!
٥٤ ـ وَصَـفْـرَاءُ فَـاقِـعَـة (٧٦)، أَذْ كَـرَتْ مَـصَـارِعَ آبَائِهِن الأول
٥٥ ـ سِهَـامٌ تَرَى مَقْـتَلَ الحَائِمَـاتِ(٧٧)، وقَوسٌ تُطِلُّ بِحِـنْـفٍ أَظَلْ!

ـ تَخَـيَّـرَهَا القَـوَّاسُ مِنْ فَـرْعِ ضَـالَة
لَهَـا شَـذَبٌ مِـنْ دُونِهَـا وَحَـوَاجِـزُ
ـ نَمَتْ فِي مَكَـانٍ كِنهَـا، فَـاسْـتَـوَتْ بِه،
فَـمَـا دُونَهَـا مِـنْ غِـيلِهَـا مُـتَـلاَحِـزُ
ـ فَـمَـازَالَ يَنْجُـو كُلَّ رَطْبٍ وَيَـابِسٍ
وَيَنْغَلُّ،.. حَـتَّـى نَالَـهَـا وَهْـوَ بَارِزُ
ـ فَـأَنْـحَى عَلَيْـهَـا ذَاتَ حَـدٍّ، غُـرَابُـهَـا
عَـدُوٌّ لأَوْسَـاطِ العِـضَـاهِ مُـشَـارِزُ
ـ فَلَمـا اطْـمَـأَنَّتْ فِي يَدَيْـهِ..، رَأى غِنًى
أَحَـاطَ بِه، وَأَزْوَرَّ عَـمَّنْ يُحَـاوِزُ

٥٦ ـ تَخَـيَّـرَهَا بَائِسٌ، لَمْ يزل يُمَارِسُ أَمْـثَـالَهَـا مُذْ عَـقَلْ
٥٧ ـ تَبَـيَّنَهَا وَهْيَ مَـحْـجُوبَةٌ، وَمِنْ دُونِهـا سِـتْرُهَا المُنْسَدِلْ(٧٨)
٥٨ ـ حَمَـاهَا العُيُـونَ فَأَخْطَأَنَـهَا، إلىَ أَنْ أَتَاهَا خَـبِيرٌ عَـضَلْ(٧٩)
٥٩ ـ رَأى غَادَةً نُشِّئَتْ فِي الظِّلاَل، ظلال النعيم، فَصَلَّى(٨٠) وَهَلْ
٦٠ ـ فَنَادَتْه مِنْ كِنِّهَـا(٨١) فَـاسْـتَـجَابَ: لَبَّـيْكِ! [يَاقَـدَّهَا المُعْتَـدِلْ]

٦١ ـ سُتُورٌ مُهَدَّلَةٌ(٨٢) دُونَهَا، وَحُرَّاسُهَا كَرِمَاحِ الأَسَلْ
٦٢ ـ يَبِيسٌ(٨٣) ورَطْبٌ وَذُو شَوكَةٍ فَاشْرَطَهَا نَفْسَهُ.. لَمْ يَبِلْ
٦٣ ـ وَسِلٌّ لِسَاناً من الباتِرَاتِ.... وَانْغَلَّ(٨٤) عَاشِقُهَا المُخْتَبِلْ!!
٦٤ ـ يَحُتُّ اليَبِيسَ(٨٥)، وَيُرْدِي الرُّطَابَ، وَيُغْمِضُ فِي ظُلْمَاتٍ تُضِلْ
٦٥ ـ فَهَتَّكَ أَسْتَارَهَا بَارِزاً إِلَى الشَّمْسِ.. قد نَالَهَا! حَيَّهَلْ(٨٦)!!
٦٦ ـ فَأَنْحَى إِلَيْهَا اللِّسَانَ الحَدِيدَ يَبْرُقُ... وَهْوَ خَصِيمٌ جَدِلْ
٦٧ ـ عَدُوٌّ شَرِيسٌ(٨٨)، لَهُ سَطْوَةٌ بِكُلِّ عَتِيٍّ قَدِيمِ الأَجَلْ
٦٨ ـ فَأَكْلُ أُمَا غَذَّتْهَا النَّعِيمَ، وَرَاحَ بِهَا وَهْوَ بَادِي الجَذَلْ(٨٩)
٦٩ ـ فَلَمَّا أَطْمَأَنَّتْ على رَاحَتَيْهِ، وَعَيْنَاهُ تَسْتَرِقَانِ(٩٠) القَبَلْ
٧٠ ـ رَقَاهَا، فَأَحْيَى صَبَابَاتِهَا بِتَعْوِيذَةٍ مِنْ خَفِيِّ الغَزَلْ
٧١ ـ فَنَاجَتْهُ... فَاهْتَزَّ من صَبْوَةٍ، وَمن فَرَحٍ بِالْغِنَى المُقْتَبَلْ(٩١)
٧٢ ـ وَأَعْرَضَ عَنْ كُلِّ ذِي خَلَّةٍ (٩٢)، غِنىً بِالَّتِي حَازَهَا... وَانْفَتَلْ...

ـ فَمَظَّعَهَا عَامَيْنِ مَاءَ لِحَائِهَا
وَيَنْظُرُ مِنْهَا : أَيُّهَا هُوَ غَامِزُ
ـ أَقَامَ الثِّقَافُ وَالطَّرِيدَةُ دَرَّأَهَا،
كَمَا قَوَّمَتْ ضِغْنَ الشَّمُوسِ المَهَامِزُ

٧٣ ـ مَعَ الشَّمْسِ عَامَيْنِ.. حَتَّى تَجِفَّ وَتَشْرَبَ مَاءَ لِحَاءِ(٩٣) خَضِلْ
٧٤ ـ وَفِي البُؤْسِ عَامَيْنِ... يَحْنِي لَهَا، وَيُحْيِيهِ مِنْهَا: الغِنَى وَالأَمَلْ
٧٥ ـ تَرَدَّدَ عَامَيْنِ... مِنْ كَهْفِهِ إِلَى مَهْدِهَا، عِنْدَ سَفْحِ الجَبَلْ
٧٦ ـ يُغَنِّي لَهَا، وَهْوَ بَادِي الشَّقَاءِ، بَادِي البَذَاذَةِ(٩٤)، حَتَّى هُزِلْ
٧٧ ـ يُقَلِّبُهَا بِيَدَيْ مُشْفِقٍ لَهِيفٍ (٩٥)، لَطِيفٍ، رَفِيقٍ، وَجِلْ
٧٨ ـ يُعَرِّضُهَا لِلَّهِيبِ الهَجِيرِ، رُؤُوفاً بِهَا، عَاكِفاً لا يَمَلْ
٧٩ ـ فَلَمَّا تَمَحَّصَ(٩٦) عَنْهَا النَّعِيمُ، وَاشْتَدَّ أُمْلُودُهَا، وَانْفَتَلْ
٨٠ ـ عَصَتْهُ، وَسَاءَتْهُ أَخْلاَقُهَا نُشُوزاً(٩٧).. فَلَمَّا التَّوَتْ كَالمُدَلْ
٨١ ـ أَعَدَّ الثِّقَافَ (٩٨) لَهَا عَاشِقٌ يُؤَدِّبُهَا أَدَبَ المُمْتَثِلْ
٨٢ ـ وَعَضَّ عَلَيْهَا.. فَصَاحَتْ لَهُ، فَأَشْفَقَ إِشْفَاقَةً، وَانْجَفَلْ(٩٩)
٨٣ ـ فَجَسَّ، فَغَاظَتْهُ وَاسْتَغْلَظَتْ، فَعَضَّ بِأُخْرَى، فَلَمْ تَمْتَثِلْ
٨٤ ـ فَأَلْقَى الثِّقَافَ.... وَأَوْصَى الطَّرِيدَةَ(١٠٠) أَنْ تَسْتَبِدَّ بِهَا، لاَ تَكَلْ
٨٥ ـ وَأَلْقَمَهَا قَدَّهَا، فَانْبَرَتْ تُخَاشِنُهَا بِغَلِيظِ مَحَلْ(١٠١)
٨٦ ـ يُجَرِّدُهَا مِنْ ثِيَابِ العِنَادِ، وَمِنْ دِرْعِهَا الصَّعْبِ، حَتَّى تَذِلْ
٨٧ ـ فَلَمَّا تَعَرَّتْ لَهُ خُرَّةً وَمَمْشُوقَةَ القَدِّ رَيَّا(١٠٢)، جَفَلْ
٨٨ ـ وَسَبَّحَ لَمَّا اسْتَهَلَّتْ لَهُ، وَلاَنَ لَهُ ضِغْنُهَا(١٠٣)... وَابْتَهَلْ

ـ وَذَاقَ... فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ جَانِباً
كَفَى ـ وَلَهَا أَنْ يُغْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ
ـ إِذَا أَنْبَضَ الرَّامُونَ عَنْهَا، تَرَنَّمَتْ
تَرَنُّمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْهَا الجَنَائِزُ

ـ هَتُوفٌ... إِذَا مَاخَالَطَ الظَّبْيَ سَهْمُهَا!
وَإِنْ رِيعَ مِنْهَا أَسْلَمَتْهُ النَّوَاقِزُ

٨٩ ـ أَطَاعَتْهُ مِنْ بَعْدِ أَنْ لَوَّعَتْهُ بِالوجْدِ عَامَيْنِ حَتَّى نَحِلْ
٩٠ ـ يُزَلْزِلُهُ أَمَلٌ يَسْتَفِزُّ فِي قَيْدِ بُؤْسٍ يُمِيتُ الأَمَلْ
٩١ ـ فَلَمَّا أَذَاقَتْهُ، إِذْ ذَاقَهَا، هَوَى أَضْمَرَتْهُ لَهُ لَمْ يَزَلْ
٩٢ ـ تَبَيَّنَ إِذْ رَامَهَا، حُرَّةً حَصَاناً(١٠٤)، تَعِفُّ فَلاَ تُبْتَذَلْ
٩٣ ـ تَلِينُ لأَنْبَلِ عُشَّاقِهَا، وَتَأْبَى عَلَيْهِ إِذَا مَا جَهِلْ(١٠٥)
٩٤ ـ فَأَغْضَى حَيَاءً... وَأَفْضَى بِهَا إِلَى كَهْفِهِ خَاطِفاً، قَدْ عَجِلْ
٩٥ ـ فَأَهْدَى لَهَا حِلْيَةً صَاغَهَا بِكَفَّيْهِ، وَهْوَ الرَّفِيقُ العَمِلْ(١٠٦)
٩٦ ـ تَخَيَّرَهَا مِنْ حَشَا أَذْؤُبٍ (١٠٧)، رَآهَا لَدَى أُمِّهَا تَسْتَظِلْ
٩٧ ـ أَعَدَّ لَهَا وَتَراً كَالشُّعَاعِ حُرَّا... عَلَى أَرْبَعٍ(١٠٨) قَدْ فُتِلْ
٩٨ ـ فَلَمَّا تَحَلَّتْ بِهِ، مَسَّهَا فَحَنَّتْ(١٠٩) حَنِينَ المَشُوقِ المُضَلْ
٩٩ ـ فَكَفْكَفَهَا(١١٠) مِنْ بَنِي أُمِّهَا صَغِيراً، تَرَدَّى بِرِيشٍ كَمَلْ
١٠٠ ـ لَهُ صَلْعَةٌ كَبَصِيصِ اللَّهِيبِ مِنْ جَمْرَةٍ حَيَّةً تَشْتَعِلْ
١٠١ ـ فَضَمَّتْ عَلَيْهِ الحَشَا رَحْمَةً وَكَادَتْ تُكَلِّمُهُ.. لَوْ عَقَلْ!
١٠٢ ـ فَجُنَّ جُنُونُ المُحِبِّ الغَيُورِ..! فَأَنْبَضَ(١١١) عَنْهَا أَبِيٌّ بَطَلْ!
١٠٣ ـ أَرَنَّتْ(١١٢) تُبَكِّي أَخَاهَا الصَّغِيرَ: وَيْحِي!! أَخِي!! وَيْلَهُ!! أَيْنَ ضَلْ
١٠٤ ـ فَظَلَّ يُفَجِّعُهَا(١١٣) : أَنْ تَرَى جَنَائِزَ إِخْوَتِهَا... وَآ ثَكَلْ!
١٠٥ ـ فَأَعْرَضَ ظَبْيٌ(١١٤) فَنَادَى بِهِ أَخُوهَا... وَنَادَتْهُ: هَا! قَدْ قُتِلْ
١٠٦ ـ وَقَفَّاهُ(١١٥) ظَبْيٌ فَصَاحَتْ بِهِ... فَخَارَتْ قَوَائِمُهُ.. ، فَاضْمَحَلْ
١٠٧ ـ فَآبَا.. يَسَائِلُهَا: هَلْ رَضِيتِ بِثُكْلِ الأَحِبَّةِ؟ قَالَتْ : أَجَلْ
١٠٨ ـ فَبَاتَا بِلَيْلَةِ مَعْشُوقَةٍ تُبَاذِلُ عَاشِقَهَا مَا سَأَلْ

ـ كَأَنَّ عَلَيْهَا زَعْفَرَاناً تَمِيرُهُ
خَوَازِنُ عَطَّارٍ يَمَانٍ كَوَانِزُ
ـ إِذَا سَقَطَ الأَنْدَاءُ، صِينَتْ وَأُشْعِرَتْ
حَبِيرًا، وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيْهَا المَعَاوِزُ

١٠٩ ـ يُغَازِلُهَا، وَهْيَ مُصْفَرَّةٌ، عَلَيْهَا بَقِيَّةُ حُزْنٍ رَحَلْ
١١٠ ـ تُنَاسِمُهُ(١١٦) عِطْرَهَا، وَالشَّذَا شَذَا زَعْفَرَانٍ عَتِيقِ الأَجَلْ
١١١ ـ تَوَارَثَتْهُ الغِيدُ يَكْنِزْنَهُ لِزِينَتِهِنَّ، خَفِيَّ المَحَلْ
١١٢ ـ فَسَاهَرَهَا(١١٧) يَزْدَهِيهِ الجَمَالُ وَيُسْكِرُهُ العَرْفُ، حَتَّى ذَهَلْ
١١٣ ـ فَنَادَتْهُ : وَيْحَكَ! أَهْلَكْتَنِي! أَغِثْنِي... هَذَا النَّدَى قَدْ نَزَلْ
١١٤ ـ فَطَارَ إِلَى عَيْبَةٍ(١١٨) ضُمِّنَتْ حَرِيرًا مُوَشَّى نَقِيَّ الخَمَلْ
١١٥ ـ كَسَاهَا حَفِيٌّ بِهَا عَاشِقٌ! إِذَا أَفْرَطَ الحُبُّ يَوْمًا قَتَلْ
١١٦ ـ فَأَلْبَسَهَا الدِّفْءَ ضِنًّا بِهَا... وَبَاتَ قَرِيرًا(١١٩).. عَلَيْهِ سَمَلْ!!

ـ فَوَافَى بِهَا أَهْلَ المَوَاسِمِ، فَانْبَرَى

القوس العذراء

لَهَا بَيِّعٌ يُغْلِي بِهَا السَّوْمَ رَائِزٌ
ـ فَقَالَ لَهُ : هَلْ تَشْتَرِيهَا؟! فَإِنَّهَا
تَبَاعُ بِمَا بِيعَ التِّلَادُ الحَرَائِزُ
ـ فَقَالَ : إِزَارٌ شَرْعَبِيٌّ، وَأَرْبَعٌ
مِنَ السَّيَرَاءِ، أَوْ أَوَاقٍ نَوَاجِزُ
ـ ثَمَانٍ مِنَ الكُورِيِّ، حُمْرٌ، كَأَنَّهَا
مِنَ الجَمْرِ مَا أَذْكَى عَلَى النَّارِ خَابِزُ
ـ وَبُرْدَانِ مِنْ خَالٍ، وَتِسْعُونَ دِرْهَمًا،
عَلَى ذَاكَ مَقْرُوظٌ مِنَ الجِلْدِ مَاعِزُ

١١٧ ـ تَمَتَّعْ دَهْرًا بِأَيَّامِهَا وَلَيْلاَتِهَا نَاعِماً قَدْ ثَمِلْ(١٢٠)
١١٨ ـ يَرَاهَا، عَلَى بُؤْسِهِ، جَنَّةً تَدَلَّتْ بِأَثْمَارِهَا، فَاسْتَظَلْ
١١٩ ـ تُصَاحِبُهُ فِي هَجِيرِ القَفَارِ، وَفِي ظُلَمِ اللَّيْلِ أَنَّى نَزَلْ
١٢٠ ـ فَيَحْرُسُهَا وَهْوَ فِي أَمْنَةٍ(١٢١)، وَتَحْرُسُهُ فِي غَوَاشِي الوَجَلْ
١٢١ ـ يَجُوبُ الوِهَادَ(١٢٢)، وَيَعْلُو النِّجَادَ، وَيَأْوِي الكُهُوفَ، وَيَرْقَى القُلَلْ
١٢٢ ـ وَيُفْضِي إِلَى مُسْتَقَرِّ الحُتُوفِ: فِي دَارِ نَمْرٍ، وَذُبْيَانَ، وَصَلْ(١٢٣)
١٢٣ ـ مَنَازِلَ عَادٍ، وَأَشْقَى ثَمُودَ، وَحِمْيَرَ، وَالبَائِدَاتِ(١٢٤) الأُوَلْ
١٢٤ ـ مَجَاهِلُ مَا إِنْ بِهَا مِنْ أَنِيسٍ، وَلاَ رَسْمَ دَارٍ يُرَى أَوْ طَلَلْ
١٢٥ ـ يُعَلِّمُهَا كَيْفَ كَانَ الزَّمَانُ، وَمَجْدُ القَدِيمِ، وَكَيْفَ انْتَقَلْ!
١٢٦ ـ وَكَيْفَ تَسَاقَى بِهَا الأَوَّلُونَ رَحِيقَ الحَيَاةِ وَخَمْرَ الأَمَلْ!
١٢٧ ـ وَأَيْنَ الأُخَلاَّءُ كَانُوا بِهَا يَجُرُّونَ ذَيْلَ الهَوَى وَالغَزَلْ!
١٢٨ ـ وَمُلْكٌ تَعَالَى، وَطَاغٍ عَتَا، وَحُرٌّ أَبَى وَحَرِيصٌ غَفَلْ!
١٢٩ ـ فَدَمْدَمَ(١٢٥) بَيْنَهُمُ صَارِخٌ: بَقَاءُ قَلِيلٌ!! وَدُنْيَا دُوَلْ!!
١٣٠ ـ فَعَرْشٌ يَخِرُّ، وَسَاعٍ بِقَرٍّ(١٢٦)، وَسَاقٍ يَمِيلُ.. وَنَجْمٌ أَفَلْ!!
١٣١ ـ زَهِدْتُ إِلَيْكَ وَفَارَقْتُهُمْ أَخِلاَّءَ عَهْدَ الصِّبَا وَالجَذَلْ
١٣٢ ـ فَنِعْمَ الصَّدِيقُ! وَنِعْمَ الخَلِيلُ وَنِعْمَ الأَنِيسُ.. وَنِعْمَ البَدَلْ!!
١٣٣ ـ صَدِيقٌ(١٢٧) صَدَاقَتُهَا حُرَّةٌ، وَخِلٌ خِلاَلَتُهَا لاَ تُمَلْ
١٣٤ ـ وَغَابًا مَعًا عَنْ عُيُونِ الخُطُوبِ، وَعَنْ كُلِّ وَاشٍ وَشَى أَوْ عَذَلْ
١٣٥ ـ وَعَنْ فِتْنَةٍ تُذْهِلُ العَاشِقَيْنِ، تُضِيءُ الدُّجَى لِدَبِيبِ المَلَلْ
١٣٦ ـ وَطَالَ الزَّمَانُ، فَحَنَّتْ بِهِ إِلَى الحَجِّ دَاعِيَةٌ تَسْتَهِلّ(١٢٨)
١٣٧ ـ آذَانٌ مِنَ اللهِ! كَيْفَ القَرَارُ؟ وَأَيْنَ الفِرَارُ؟ وَكَيْفَ المَهَلْ(١٢٩)
١٣٨ ـ تُرَدِّدُهُ البَيْدُ بَيْنَ الفِجَاجِ، وَفَوْقَ الجِبَالِ، وَعِنْدَ السُّبُلْ
١٣٩ ـ أَصَاخَ لَهُ، وَأَصَاخَتْ لَهُ، وَلَبَّتْهُ فَامْتَثَلَتْ، وَامْتَثَلْ
١٤٠ ـ وَطَارَا مَعًا كَظِمَاءِ القَطَا(١٣٠)، إِلَى مَوْرِدٍ زَاخِرٍ مُحْتَفِلْ
١٤١ ـ فَوَافَى المَوَاسِمَ. فَاسْتَعْجَلَتْ تُسَائِلُهُ: مَنْ أَرَى؟.. أَيْنَ ضَلّ؟
١٤٢ ـ أَسَرَّ إِلَيْهَا: أُولاَكِ الحَجِيجُ!! فَلَبَّى لِرَبٍّ تَعَالَى وَجَلْ

١٤٣ ـ وَنَادَتْهُ جَافِلَةٌ(١٣١): مَا تَرَى! أَجَذْوَةَ نَارٍ أَرَى أَمْ مُقَلْ؟
١٤٤ ـ فَمَا كَادَ... حَتَّى رَأَى كَاسِرًا(١٣٢) تَقَاذَفَ مِنْ شَعَفَاتِ الجَبَلْ
١٤٥ ـ يُدَانِي الخُطَا، وَهْوَ نَارٌ تَؤَجُّ(١٣٣)، وَيُبْدِي أَنَاةً تَكُفُّ العَجَلْ
١٤٦ ـ وَمَدَّ يَدًا لا تَرَاهَا العُيُونُ، أَخْفَى إِذَا مَا سَرَتْ مِنْ أَجَلْ
١٤٧ ـ وَنَظْرَةَ عَيْنٍ لَهَا رَوْعَةٌ، تُخَالُ صَلِيلَ سُيُوفٍ تُسَلّ
١٤٨ ـ فَلَمَّا أَهَلَّ وَأَلْقَى السَّلاَمَ، وَأَفْتَرَ عَنْ بَسْمَةِ المُخْتَتِلْ(١٣٤)
١٤٩ ـ وَقَالَ : أَنِسْتَ؟! وَيُمْنَى يَدَيْهِ تَمَسُّ أَنَامِلُهَا مَا سَأَلْ
١٥٠ ـ رَأَى بَائِسًا مَالُهُ حُرْمَةٌ تَكُفُّ أَذَىً عَنْهُ... بُؤْسٌ وَذُلّ
١٥١ ـ وَقَالَ : فَدَيْتُكَ! مَاذَا حَمَلَتْ؟ وَمَاذَا تَنَكَّبْتَ(١٣٥) يَا ذَا الرِّجُلْ؟!
١٥٢ ـ وَأَفْدِي الَّذِي قَدْ بَرَى عُودَهَا، وَقَوَّمَ مُنْآدَهَا(١٣٦)، وَاعْتَمَلْ!!
١٥٣ ـ فَهَزَّتْهُ مَا كَرَةٌ، (١٣٧)لم يَزَلْ يَتِيهُ بِهَا السَّمْعُ، حَتَّى غَفَلْ
١٥٤ ـ فَأَسْلَمَهَا لِشَدِيدِ المِحَالِ(١٣٨)، ذَلِيقِ اللِّسَانِ، خَفِيِّ الحِيَلْ
١٥٥ ـ فَلَمَّا تَرَامَتْ عَلَى رَاحَتَيْهِ، وَرَازَ(١٣٩) مَعَاطِفَهَا وَالثِّقَلْ
١٥٦ ـ دَعَتْ: يَا خَلِيلِيَ! مَاذَا فَعَلْتَ؟! أَأَسْلَمْتَنِي؟! لِسَوَاكَ الهَبَلْ(١٤٠)!!
١٥٧ ـ فَخَالَسَهَا (١٤١) نَظْرَةً خَفَضَتْ غَوَارِبَ جَأْشٍ غَلاَ بِالوَهَلْ
١٥٨ ـ وَقَالَ : لَكَ الخَيْرُ! فَدَّيْتَنِي بِنَفْسِكَ!!
ـ بَارِي قِسِيّ!
ـ أَجَلْ!!
١٥٩ ـ فَبِعْنِي إِذَنْ!!
ـ هِيَ أَغْلَى عَلَيَّ، إِذَا رُمْتَهَا، مِنْ تِلاَدِ(١٤٢) جَلَلْ!
١٦٠ ـ فَقَالَ : نَعَمْ! لَكَ عِنْدِي الرِّضَى، وَفَوْقَ الرِّضَى!
ـ [وَيْلُهُ مَنْ مُضِلْ!]
١٦١ ـ فَهَلْ تَشْتَرِيهَا(١٤٣)؟!..
ـ نَعَمْ أَشْتَرِي!
ـ لَكَ الوَيْلُ مِثْلُكَ يَوْمًا بَخِلْ!
١٦٢ ـ فَدَيْتُكَ!! أَعْطَيْتُ مَا تَشْتَهِيهِ!.. مَابِي فَقْرٌ وَلا بِي بَخَلْ(١٤٤)!
١٦٣ ـ فَنَادَتْهُ، وَيْحَكَ! هَذَا الخَبِيثُ! خُذْنِي إِلَيْكَ، وَدَعْ مَا بَذَلْ
١٦٤ ـ فَبَاسَمَهَا(١٤٥) نَظْرَةً... ثُمَّ رَدَّ إِلَى الشَّيْخِ نَظْرَةَ سُخْرٍ مُطِلّ:
١٦٥ ـ بِكَمْ تَشْتَرِيهَا؟!..
فَصَاحَتْ بِهِ : حِذَارِ! حِذَارِ! دَهَاكَ الخَبَلْ!!
١٦٦ ـ لَهُ رَاحَةٌ نَضَحَتْ(١٤٦) مَكْرَهَا عَلَيَّ، فَدَعْ عَنْكَ! لاَ تُغْتَفَلْ
١٦٧ ـ فَقَالَ : إِزَارٌ مِنَ الشَّرْعَبِيِّ(١٤٧) وَأَرْبَعُ مِنْ سِيَرَاءِ الحُلَلْ
١٦٨ ـ بُرُودٌ تَضِنُّ بِهِنَّ النِّجَارُ(١٤٨) إِذَا رَامَهُنَّ مَلِيكٌ أَجَلّ
١٦٩ ـ وَمِنْ أَرْضِ قَيْصَرَ : خُمْرٌ ثِمَانٍ جَلاَهَا (١٤٩) الهِرَقْلِيُّ، مِثْلَ الشُّعَلْ
١٧٠ ـ ثَمَانٍ تُضِيءُ عَلَيْكَ الدُّجَى! إِذَا عَمِيَ النَّجْمُ، نِعْمَ البَدَلْ
١٧١ ـ وَبُرْدَانِ مِنْ نَسْجِ خَالٍ(١٥٠)، أَشَفُّ وَأَنْعَمُ مِنْ خَدِّ عَذْرَاءَ... بَلْ

١٧٢ ـ إذَا بُسطَا تُحتَ شَمْسِ النَّهارِ، فالشَّمْسُ تَحتَهُمَا... لَيْسَ ظلْ
١٧٣ ـ وَتسْغُون مثْلُ عُيُون الجَرَادْ... بَرَّاقَةٌ كَغدير(١٥١) الوَشَلْ
١٧٤ ـ كَمرْآة حَسْنَاءَ مَفْتُونة، كَرأْس سنَان حَديث صُقَلْ
١٧٥ ـ أجَلْ..!! وَأديمٌ(١٥٢) كَمثْل الحَرير، يُطْوَى وَيُرْسَلُ مثْلَ الخَصَلْ
١٧٦ ـ وَحَوْلَهُمَا زَفَرَاتُ الزِّحَام، وَأذْنٌ تَميلُ، وَرَأسٌ يُطلْ
١٧٧ ـ وَغَمْغَمَةٌ(١٥٣)، وَحَديثٌ خَفِيٌ وَنَغْيَةُ زَار، وآت سَأَلْ
١٧٨ ـ وَعَاشقَةٌ في إسَار(١٥٤) السوَام!! وَعَاشقُها في الشَّرَاك اُحْتُبِلْ
١٧٩ ـ تُنَادِيه مَلْهُوفَة تَسْتَغيثُ، ضَائعَةُ الصَّوْت... عَنْهَا شُغِلْ

ـ فَظَلَّ يُنَاجِي نَفْسَهُ وَأَمِيرَهَا
أَيَأْتِي الَّذِي يُعْطَى بِهَا أَمْ يُجَاوِزُ
ـ فَقَالُوا لَهُ : بَايِعْ أَخَاكَ.. وَلا يَكُنْ
لَكَ اليَوْمَ عَنْ رِبْحٍ مِنَ البَيْعِ لاَهِزُ

١٨٠ ـ [أعُوذُ بِرَبِّي وَرَبِّ السَّمَاء وَالأرْض!.. مَاذَا يَقُولُ الرَّجُلْ؟!
١٨١ ـ أجُنَّ؟! نَعَمْ.. لاَ.. أرَى سُورَةَ(١٥٥) منْ العَقْل، لاَخْلجَات الخَبَلْ!
١٨٢ ـ وَعَيْنَيْ صَفْاء كَمَاء القَلاَتْ(١٥٦)، وَعِرْنِينَ أنْف سَمَا وَاعتَدَلْ
١٨٣ ـ وَجَبْهَة زَاك (١٥٧)، نَمَاهُ النَّعيمُ فَي سُؤْدُد وَسَرَاء نُبُلْ
١٨٤ ـ أيُعْطِي بِهَا المَالَ؟! هَذَا الخَبَالُ! قَوْس وَمَالٌ كَهَذَا؟ تُكِلْ!!
١٨٥ ـ وَيَارَبِّ! يَارَبِّ! مَاذَا أقُولُ؟.. أقُولُ نَعَمْ!.لا فَهَذَا خَطَلْ
١٨٦ ـ أبِيعُ!! وَكَيْفَ!.. لَقَدْ كَادَنِي(١٥٨) بِعَقْلِي هَذَا الخَبِيثُ المَحِلْ
١٨٧ ـ أُفَارِقُهَا! وَيْكَ(١٥٩)!! هَذَا السَّفَاهُ! قَوْسِيَ! كَلاَّ! خَذِينِي وَخَلْ!!
١٨٨ ـ أجَلْ!! بَلْ هُوَ البؤْسُ بَاد عَليَّ! فَأغْرَاهُ بِي! وَيْحَهُ! مَا أضَلْ!!
١٨٩ ـ يُسَاوِمُنِي المَالَ عَنْهَا؟! نَعَمْ!.. إذَا لَبِسَ البُؤْسُ حُرًّا أذَلْ
١٩٠ ـ إذَا مَا مَشَى تَزْدَرِيه العُيُونُ، وَإنْ قَالَ رُدَّ كَأنْ لَمْ يَقُلْ
١٩١ ـ نَعَمْ! إنَّهُ البُؤْسُ!! أيْنَ المَفَرُّ منْ بَشَر كَذئَاب الجَبَلْ؟!
١٩٢ ـ ثَعَالبُ نُكْر(١٦٠) تُجِيدُ النِّفَاقَ حَيْثُ تُرَى فُرْصَةٌ تُهْتَبَلْ
١٩٣ ـ كِلاَبٌ مُعَوَّدَةٌ للهَوَان تُبَصْبِصُ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ بَذَلْ
١٩٤ ـ فَوَيْحِي منَ البُؤْس!.. وَيْلٌ لَهُمْ!!. أرَى المَالَ نُبْلاً يُعَلِي السَّفَلْ(١٦١)
١٩٥ ـ فَخُذْ مَا أتَيتَ بِه..!! إنَّه مَليك يُخَافُ، وَرَبٌ يُجَلْ
١٩٦ ـ وَسُبْحَانَ رَبِّي! يَدِي! مَا يَدِي؟! بَرِيئَتُ القَسيَّ بِهَا لم أمَلْ!
١٩٧ ـ حبَانِي(١٦٢) به فَاطرُ النِّيرَات وَبَارِي النَّبَات وَمُرْسِي الجَبَلْ!
١٩٨ ـ وَأوْدَعَهَا سِرَّهَا عَالِم خَبِيرٌ بِمَكْنُونِهَا لَمْ يَزَلْ!
١٩٩ ـ وَفِي المَالِ عَوْنٌ عَلَى مثْلِهَا! وَفِي البُؤْس هُونٌ(١٦٣)، وَذُلٌ، وَقُلْ!]
٢٠٠ ـ تَنَادَوْا به : أنْتَ؟! مَاذَا دَهَاكَ؟! مَالكَ يَا شَيْخُ؟! قُلْ يَا رَجُلْ!
٢٠١ ـ وَآت يُصَيحُ، وَكَفٌ تُشِيرُ، وَصَوْتٌ أجَشُّ(١٦٤)، وَصَوْتٌ يَصِلْ!
٢٠٢ ـ وَطَنَّتْ مَسَامِعُهُ طَنَّةً... وَزَاغَتْ نَوَاظِرُهُ وَاخْتَبَلْ
٢٠٣ ـ .. وَأفْضَى إلَيْه كَهَمْس المَريض أشَفَّى(١٦٥) عَلَى المَوْت مَا يَسْتَقِلْ..
٢٠٤ ـ تُنَادِيه: وَيْحَكَ! وَيحِي!! هَلَكْتَ!! أتَوْكَ بِقَاصِمَةٌ! وَاتَّكَلْ!
٢٠٥ ـ تَلَفَّتَ يَصْغِي... وَمِثْلُ اللَّهِيب ضَوْضَاءُ وَعْوَعَة(١٦٦) في زَجَلْ
٢٠٦ ـ فَهَذَا يُؤَجُّ(١٦٧)... وَهَذَا يَعِجُّ... وَهَذَا يَخُورُ... وَهَذَا صَهَلْ!
٢٠٧ ـ وَدَان يُسِرُّ... وَدَاع يَحُثُّ... وَكَفٌ تُرَبِّتُ: بِعْ يَا رَجُلْ!
٢٠٨ ـ لَقَدْ بَاعَ بَعْ! بَاعَ! لاَ لَمْ يَبِعْ! غِنَى المَالِ! وَيْحَكَ! بِعْ يَا رَجُلْ!
٢٠٩ ـ [وَحَشْرَجَةُ(١٦٨) الموْت: خُذْنِي.. إلَيكَ!!

ـ لَبَّيْك!! لَبَّيْك!]

بِعْ يَا رَجُلْ!!
٢١٠ ـ [أغِثْنِي!. أجَلْ!]
بَاعَ! مَاذَا؟! أبَاعَ؟! نَعَمْ بَاعَ قَدْ بَاعَ! حَقّاً فَعَلْ؟!
٢١١ ـ [أغِثْنِي! أغِثْنِي! نَعَمْ!]
قَدْ رَبِحْتَ!!.. بُورِكَ مَالُكَ!
أيْنَ الرَّجُلْ؟!
١١٢ ـ مَضَى!.. أيْنَ!.. لاَ. لَسْتُ أدْرِي!.. متَى؟
لَقَدْ بِعْتَ ؟!.. كَلاَّ وَكَلاَّ.. أجَلْ!
٢١٣ ـ لَقَدْ بِعْتَ! قَدْ بِعْتَ!
ـ كَلاَّ! كَذَبْتَ!
لَقَدْ بِعْتَ! قَدْ بَاعَ!
ـ وَيْحِي! أجَلْ
٢١٤ ـ لَقَدْ بِعْتُهَا.. بِعْتُهَا.. بِعْتُهَا.. جُزِيتُمْ بَخَيْر جَزَاء، أجَلْ!..
٢١٥ ـ أجَلْ بِعْتُهَا.. بِعْتُهَا. بِعْتُهَا!! أجَلْ بِعْتُهَا!! لاَ، أجَلْ لاَ، أجَلْ

فَلَمَّا شَرَاهَا فَاضَتِ العَيْنُ عَبْرَةً،
وَفِي الصَّدْرِ حَزَّازٌ مِنَ الوَجْدِ حَامِزُ

٢١٦ ـ [أجَلْ.. لاَ أجَلْ بِعْتُهَا! بِعْتُهَا!. أجَلْ بعتها! بِعْتُهَا!.. لاَ أجَلْ
٢١٧ ـ وفَاضَتْ دُمُوعٌ كَمِثْل الحَمِيم(١٦٩)، لَذَّاعَةٌ، نَارُهَا تَسْتَهِلْ
١١٨ ـ بُكَاء منَ الجَمْرِ جَمْرِ القُلُوب، أرْسَلَهَا لاَعِجٌ(١٧٠) منْ خَبَلْ
٢١٩ ـ وَغَامَتْ بِعَيْنَيْه، وَاسْتَنْزَفَتْ دَمَ القَلْب يَهْطِلُ فيمَا هَطَلْ
٢٢٠ ـ وَخَانِقَةٌ ذَبَحَتْ صَوْتَهُ، وَهيضَ(١٧١) اللِّسَانُ لَهَا وَاعْتقلْ
٢٢١ ـ وَأغْضَى عَلَى ذلَّة مُطْرِقًا، عَلَيه منَ الهَمِّ مثْلُ الجَبَلْ
٢٢٢ ـ أقَامَ... وَمَا إنْ بِهِ منْ حَرَاك، تَخَاذلُ (١٧٢) أعْضَاؤُهُ كَالأشَلْ
٢٢٣ ـ وَفي أُذُنَيه ضَجِيجُ الزِّحَام، وَ«بِعْ بَاعَ، بِعْ بَاعَ، بِعْ يَا رَجُلْ»!
٢٢٤ ـ وَأخْلَدَ في حَيْثُ طَارَ السوَامُ(١٧٣) بِمُهْجَته، كَأرُوم مَثَلْ
٢٢٥ ـ كَأنَّ صَخْرَةٌ نَبَتَتْ، حَيْثُ قَامَ، تمثَال حُزْن صَلُود(١٧٤) عُتُلْ
٢٢٦ ـ وَمنْ حَوْله النَّاسُ مثْلُ الدَّبَى(١٧٥) عجَالاً تَنَزَى، دَهَاهُنَّ طلْ
٢٢٧ ـ فَمنْ قَائل : فَازَ! رَدَّت عَلَيْه قَائلَةٌ : لَيْتَهُ مَا فَعَلْ!
٢٢٨ ـ وَمنْ هَامس: وَيْحَهُ مَادَهَاهُ! وَمنْ مُنْكر: كَيْفَ يَبْكي الرَّجُلْ!
٢٢٩ ـ وَمنْ ضَاحك كَرْكَرَتْ(١٧٦) ضَحْكَةٌ لَهُ مِنْ مَزُوح خَبِيث هَزَلْ
٢٣٠ ـ وَمنْ سَاخر قَالَ : يَا آكلاً! تَلَبَّسَ في سَمْت(١٧٧) منْ قَدْ أكَلْ!

القوس العذراء

٢٣١ ـ وَمِنْ بَاسِط كَفَّهُ كَالمُعَزِّي وَهَيْنَمَة(١٧٨) غَمْغَمَتْ لَمْ تُقَلْ
٢٣٢ ـ وَمِنْ مَشَّفِق سَاقَ إِشْفَاقَهُ وَوَلَّى، وَمُلْتَفت لَمْ يُوَلّ
٢٣٣ ـ وَسَالَت جُمُوعُهُمُ في الرِّمَال.. وَمَاتَ الوَغَى(١٧٩).. غَيْرَ حَسّ يَصِلْ
٢٣٤ ـ وَأَسْفَرَ(١٨٠) وَانْجَابَ دَاجِي السَّوَاد عَنْ مُخْبِت خَاشِع كَالمُصَلّ
٢٣٥ ـ وَظَلَّ طَوِيلاً.. لَهُ سَبْتَةٌ(١٨١) وَإِطْرَاقَةٌ، وَآسَى يَنْهَمِلْ
٢٣٦ ـ أَفَاقَ وَقَيْذاً(١٨٢)، بَطِيءَ الإِفَاقَة.. يَرْفَعُ مِنْ رَأْسه كَالمُطَلّ
٢٣٧ ـ وَقَلَّبَ عَيْنَيه: مَاذَا يَرى؟ وَأَيْنَ الزِّحَامُ؟ وَأَيْنَ الرَّجُلْ!
٢٣٨ ـ رَأَى الأَرْضَ تَمْشِي بِهِم كَالخَيَال، أَشْبَاحُهُمْ خُشُبٌ تَنْتَقِلْ
٢٣٩ ـ وَهَامٌ(١٨٣) مُحَلَّقَةٌ رُجَّفٌ، وَأُخْرى بَدَتْ كَنَزِيع البَصَلْ
٢٤٠ ـ وَأَغْرِبَةٌ (١٨٤): بَعْضُهَا جَاثِم يُحَرِّك رَأْسًا، وَبَعْضٌ حَجَلْ
٢٤١ ـ وَحَيَّاتُ وَاد، لِشَمْسِ الضُّحَى تُلْوِي حَيَازِيمَهَا(١٨٥) والقُلَلْ
٢٤٢ ـ وَأَزْلَقَةٌ(١٨٦) مِنْ ضِبَاعِ الفَلاَة تَجْمَعُ مِنْ حَوْلِ قَتْلَى هَمَلْ
٢٤٣ ـ وَهَنَّا وَهَنَّا ضِبَابٌ(١٨٧) مَرَقْنَ مِنْ كُلِّ جُحْرٍ لِسَيْلٍ حَفَلْ
٢٤٤ ـ وَثَوْبٌ يَطِيرُ بِلاَ لاَبِس، يَمِيلُ مَعَ الرِّيحِ أَنَّى تَمِلْ
٢٤٥ ـ تَمَطَّى بِهِ البَعْثُ مِنْ نَعْسَة، وَمِنْ سنة كَفَتُور الكَسَلْ
٢٤٦ ـ وَدَبَّتْ إِلَيْه بَقَايَا الحَيَاة، فَرَفَعَ أَعْطَافَهُ(١٨٨) وَاعْتَدَلْ
٢٤٧ ـ وَظَلَّ يُنَازِعُ كَبْلَ(١٨٩) الذُّهُول وَيَحْتَلِجُ النَّفْسَ مِنْ أَسْرِ غُلْ
٢٤٨ ـ كَنَاشط(١٩٠) ثَقُلَ طَوِيلِ الرِّشَاء مِنْ هُوَّة في حَضِيضِ الجَبَلْ
٢٤٩ ـ رُوَيْدًا رُوَيْدًا فَثَابَتْ لَهُ مُلْجُلَجَةٌ(١٩١) يَعْتَرِيهَا هَلَلْ
٢٥٠ ـ وَمِثْلَ الحَمَامَة بَيْنَ الضُّلُوعِ قَدْ انْتَفَضَتْ مِنْ غَوَاشِي بَلَلْ
٢٥١ ـ يُقَلِّبُ جِمْجُمَةً، خَالَهَا كَجُلْمُود صَخْر رَكِين(١٩٢) حَمَلْ
٢٥٢ ـ فَلأْياً بِلأْيٍ(١٩٣) وَآبَتْ لَهُ مُبَعْثَرَةٌ مِنْ أَقَاصِيِّ العِلَلْ
٢٥٣ ـ وَنَفَّسَ عَنْ صَدْرِهِ زَفْرَةً، وَخَامَرَهُ(١٩٤) البُرْءُ حَتَّى أَبَلّ
٢٥٤ ـ أَحَسَّ بِكَالجَمْرِ في رَاحَتَيْه: سَعِير تَوَقَّد!! مَاذَا احْتَمَلْ؟
٢٥٥ ـ وَيَبْسُطُ كَفَّيه: مَاذَا أَرى جَوَابٌ حَثِيثٌ وَلَوْ لَمْ يَسَلْ!!
٢٥٦ ـ عُيُونٌ تُحَمْلِقُ في وَجْهِه، مِنْ الخُبْث تَزْهَرُ(١٩٥) أَوْ تَاكَلْ!!
٢٥٧ ـ [أَجَلْ بِعْتُهَا! بِعْتُهَا بِعْتُهَا!.. بِقَاءٌ قَلِيلٌ وَدُنْيَا دُوَلْ!]
٢٥٨ ـ وَأَلْقَى الغِنَى لِلثَّرَى! وَانْتَحَى(١٩٦) وَنَفَضَ كَفَّيْه: [حَسْبِي! أَجَلْ]
٢٥٩ ـ وَأَلْقَى إِلَى غَالِيَاتِ الثِّيَاب وَالبَزِّ نَظْرَةَ لاَ مُحْتَفِلْ!
٢٦٠ ـ وَوَلَى كَئِيبًا ذَلِيلَ الخُطَا، بَعِيدَ الأَنَاة، خَفِيَّ الغُلَلْ(١٩٧)!
٢٦١ ـ وَأَوْغَلَ في مُضْمَرَاتِ(١٩٨) الغُيُوبِ يَطْوِي البَلاَبِلَ طَيَّ السِّجِلّ
٢٦٢ ـ أَرَادَ لِيَنْسَى وَبَيْنَ الضُّلُوعِ نَوَافِذَ مِنْ ذِكَر تَنْتَضِلْ
٦٦٣ ـ فَأَحْيَتْ صَبَابَتَهُ، وَالجِرَاحُ دِمَاءٌ مُفَزَّعَةٌ لَمْ تَسَلّ
٢٦٤ ـ تُرِيه الرُّؤَى وَهْوَ حَيُّ النَّهَار، وَتَسْرِي بِه وَهْوَ لَمْ يَنْتَقِلْ
٢٦٦ ـ وَيَبْسُطُ كَفَّيه مُسْتَغْرِقًا، فَتَحْسَبُهُ قَارِئًا قَدْ ذَهَلْ
٢٦٧ ـ يَرَى نِعْمَة لَبِسَتْ نِقْمَةً، وَنُورًا تَدَجَّى(١٩٩)، وَسِحْرًا بَطَلْ
٢٦٨ ـ وَآيَتَهُ(٢٠٠) عَاثَ فِيهَا الشُّحُوبُ فَأَنْكَرَ مِنْ لَوْنِهَا مَا نَصَلْ
٢٦٩ ـ وَأَسْرَارَهَا(٢٠١) فَضَّهَا طَائِف لَهُ سَطْوَة وأذى حَيْثُ حَلْ
٢٧٠ ـ وَسَحْقَ(٢٠٢) غِشَاء عَلَى أَعْظُمٍ، تَهَتَّك مِثْلَ الأَدِيم النَّغِلْ
٢٧١ ـ وَمَسَتْ أَنَامِلَهُ رَجْفَةٌ، تَسَاقَطَ عَنْهَا سَنَاهَا(٢٠٣) وَزَلّ
٢٧٢ ـ وَأَفْضَى بِنَظْرَته نَافِذًا إِلى غَيْبِ مَاض بَهِيمِ(٢٠٤) السُّبُلْ
٢٧٣ ـ تَلاَوَذُ(٢٠٥) أَشْبَاحُهُ، كَالذَّلِيل، بِلُغْزِ نَخِيل، وَدَاجِي دَغَلْ
٢٧٤ ـ وَأَسْوَدَةً خَطِفَتْ فِي الظَّلاَمِ هَارِبَةً مِنْ صَيُودٍ خَتَلْ
٢٧٥ ـ وَطَيْرًا مُرَوِّعَةً أَجْفَلَت، وَآمِنَ طَيْرٍ وَدِيعٍ هَدَلْ(٢٠٦)
٢٧٦ ـ وَشَقَّت لَهُ السُّدَفَ(٢٠٧) الغَاشِيَات حَسْنَاءُ ضَالَ عَلَيْهَا الحُلَلْ
٢٧٧ ـ أَضَاءَ الظَّلاَمُ لَهَا بَغْتَةً، وَقَوَّضَ خَيْمَتَهُ وَارْتَحَلْ
٢٧٨ ـ أَطَلَّتْ لَهُ مِنْ خِلاَلِ الغُصُونِ عَذْرَاء مَكْنُونَة لَمْ تُنَلْ
٢٧٩ ـ «رَأَى غَادَةً نُشِّئَتْ في الظِّلاَلِ، ظِلاَلِ النَّعِيم»، عَلَيْهَا الكَلَلْ(٢٠٨)
٢٨٠ ـ عَرُوسٌ تَمَايَلُ مُخْتَالَةً، تُمِيتُ بَدَلٌ، وَتُحْيِي بَدَلْ
٢٨١ ـ وَنَادَتْه، فَارْتَدَّ مُسْتَوفِزًا(٢٠٩) بِجُرْحٍ تَلَظى وَلَمْ يَنْدَمِلْ:
٢٨٢ ـ أفق! قَدْ أَفَاقَ بِها العَاشِقُون قَبْلَكَ، بُعْدَ أَسىً قَدْ قَتَلْ!
٢٨٣ ـ أَفِقْ! يَا خَلِيلِي! أفق! لاَ تَكُنْ حَلِيف الهُمُوم، صَرِيع العِلَلْ
٢٨٤ ـ فَهَذَا الزَّمَانُ، وَهَذِي الحَيَاةُ، عَلَّمْتنيهَا قَدِيمًا: دُوَلْ!!
٢٨٥ ـ أَفِقْ! لاَ فَقَدْتُكَ! مَاذَا دَهَاكَ؟! تَمَتَّعْ! تَمَتَّعْ! بِهَا! لاَ تَبِلْ!
٢٨٦ ـ بِصُنْع يديْك تَرَانِي لَدَيْكَ، في قَدِ أُخْتِي! وَنِعْمَ البَدَلْ!
٢٨٧ ـ صَدَقْت! صَدَقْت!. وَأَيْنَ الشَّبَابُ؟ وَأَيْنَ الوَلُوعُ؟ وَأَيْنَ الأَمَلْ
٢٨٨ ـ صَدَقْت صَدَقْت!!.. نَعَمْ قَدْ صَدَقْت! وَسِر يَدَيْك كَأَنْ لَمْ يَزَلْ
٢٨٩ ـ حَبَاكَ بِه فَاطِر النَّيِّرات، وَبَارِي النَّبَات، وَمَرْسِي الجَبَلْ
٢٩٠ ـ فَقُمْ! وَاسْتَهِلَّ(٢١٠)، وَسَبِّحْ لَهُ! وَلَبِّ لِرَبٍّ تَعَالَى وَجَلّ

.... وأستغفر اللَّه، فإلا تكنْ رَضيتَ فقد أملَلْتك، وإذا أنا قد أسأتُ من حيثُ أردتُ الإحسان.. ولكنَّك بعثتَ كوامنَ نفسي مُنْذ رأيتُك، فتوسَّمْتُ وجْهك، وعرفتُ فيه شيئًا أخطأتُه في وُجوه كثير من أهل زماننا، فأحببتُ أن أعظك وأعظَ نفسي بنِعمة اللَّه على عباده، إذ جعَل بعضَهم لبعض قُدوةً وعِبْرَةً، وآتاهُم من مكنون علْمه مالا يغفلُ عنْه إلاّ هالكٌ، ولا يُضيِّعه إلاّ مُستهينٌ لا يبالي. وقد بلّغنا رسولُ اللَّه عن ربهِ بلاغًا يُضيء لكلِّ حيٍّ نَهْجَ حياته، ويُمسكُ عليه هدْيَ فطرته، إذ قال: «إنّ اللَّه يُحبُّ إذا عمل أحدُكُم عملاً أن يُتْقنَه» وقال: «إنّ اللَّه كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيء، فإذا قتلْتم فأحسنُوا القتلة، وإذا ذبحْتُم فأحسنُوا الذِّبْحة، ولْيُحدَّ أحدُكُمْ شفْرتَه، ولْيُرِحْ ذبيحتَه» فانْظُر إلى أين كتب اللَّه علَينا أن نبلُغَ في إتقان ما نَصْنَع، وإحسانِ ما نَعْمَل!

اللهُم إنَّا نسألُك الثباتَ في الأمر، والعزيمةَ على الرُّشْد، والإتقانَ في العَمَل، والإحسانَ فيما نأتي وما نَذر. ونَسْألُكَ منْ خير ما تَعْلم، ونعوذُ بك من شرّ ما تَعْلم. ونَسألُك قَلْبا سليما، ولسانًا صادقًا، وعملاً صالحًا، وسَدادًا في الخير. والسلامُ على منْ اتَّبَع الهُدَى.

من أخيك..

محمود محمد شاكر

القاهرة: ١٧ ربيع الآخر سنة ١٣٧١هـ

١٥ يناير سنة ١٩٥٢م

■■ هوامش:

(١) أعوزه الأمر يعوزه: إذا اشتد عليه وعسر، واحتاج إليه فلم يقدر عليه.

(٢) ينسرب: يجري سائلاً متتابعاً لا يكاد يحسه.

(٣) النهج: الطريق المستقيم الواضح البين. واللاحب: الطريق الواسع الأملس، لا يعوقك في مسيرك فيه شيء. والهدي: السيرة المستقيمة المؤدية إلى غاية لا تضل عنها.

(٤) لا يتخلف: لا ينقطع عنها فيتأخر، ويأتي في غير موعده ومكانه.

(٥) الذرة: النملة الصغيرة الحمراء. النمال (جمع نملة).

(٦) تقضي نحبها: تفرغ من عملها، وتبلغ مدة أجلها.

(٧) تمرق: تخرقه وتخرج منه ضالة على وجهها.

(٨) تحدث: تبتدع طريقاً مخالفاً لسنة خلقها.

(٩) سن الطريق: بينه ووطاه مستقيماً إلى قصد معروف.

(١٠) نسقاً: أي نظاماً متتابعاً متواتراً على سواء السبيل. منقاداً: سلساً مفضياً إلى نهايته.

(١١) التراث: الإرث المورث، والمؤبد: الخالد منذ أبد الآبدين.

(١٢) السنة: الطريقة والسيرة اللازمة.

(١٣) المنهاج: المسلك الواضح. الغابر: الماضي. والشرك: جادة الطريق لاتخفى معالمها، لظهور آثار السائرين فيها، فالسائر كأنه يهتدي فيها ويستقيم اضطراراً.

(١٤) تشنؤه: تجده قبيحاً شنيعاً فتبغضه، تخامرك: تخالط نفسك فَتُغْطِّي على حسن تمييزك، كما تفعل الخمر بالعقول.

(١٥) مدرج أوله: دبيب آبائه الأولين عليها. درج الصبي: دب على الأرض ومشى مشياً ضعيفاً. والفرط: السابق المتقدم.

(١٦) سدى: مهملاً غير مأمور ولا منهي ولا مسدد. الهمل: الضال المتروك بلا بيان يهديه أو يحكمه.

(١٧) النهج الأول، والهدي القديم هو الفطرة التي فطر الله عليها آدم وولده قبل اختلافهم وضلالهم، ونزول التكليف، وبعثة الأنبياء.

(١٨) أنبط: استخرج الماء من بطن الأرض. الذخائر (جمع ذخيرة) وهو ماتخيرته فأخفيته ودفنته عن العيون. يستبحر: ينشق ويتسع ويصير كالبحر لاينقطع ماؤه. السرائر (جمع سريرة):وهو ماكان مكتوماً كالسر، لايعرف حتى تعلنه. والفتح:ما انفتح بعد استغلاق.

(١٩) تَأيَّد: صار ذا أيد وقوة وتمكن. تالد: تقادم عهده وثبت أصله. عمر: عاش وبقي زمانا طويلاً.

(٢٠) حاد: مال عنه وعدل إلى غيره. مرق: خرقه وخرج إلى ضلال المسالك.

(٢١) تمرس: احتك بالشيء فأثر فيه. أسلم: ترك مخذولا بلا هداية.

(٢٢) نزع: حن واشتاق.

(٢٣) احتفر: بذل الجهد في الحفر. أكدى حافر البئر: إذا حفر فبلغ الصخور، فقطع الحفر خيبة ويأساً.

(٢٤) ندت: نفرت هاربة واستصعبت. استقادت: خضعت وأعطته المقادة.

(٢٥) جاشت نفسه: فارت وارتفعت. والصبابة: بقية الماء التي تصب.

(٢٦) الميسم: اثر الوسم بالنار، تدله: ذهب عقله من الحب والهوى

(٢٧) استجاد: وجد لذة جودته وحسنه.

(٢٨) الزهو: التيه والفخر والعظمة.

(٢٩) ختله: خدعه على حين غفلة.

(٣٠) عدت إليه: أسرعت إليه على حين بغتة. والنبوة: القلق الذي يمنع الاطمئنان.

(٣١) أعلام (جمع علم): وهو المنار الذي ينصب في الطرق لهداية السارين.

(٣٢) ركد البرق: سكن وميضه. والبوارق (جمع بارقة): وهي السحابة ذات البرق.

(٣٣) صافاه: أخلص له الحب، وأعطاه صفو مودته وهمه.

(٣٤) المتانق: الذي يعمل الشيء بتجويد يأتي فيه بالعجب، حباً لما يعمل وإعجاباً به. ثرة: غزيرة الماء. لاعج: محرق يستعر في القلب ويترك فيه آثاراً.

(٣٥) ممتهن: مبتذل.

(٣٦) مذخور: يتخذه المرء ذخيرة يصطفيها ويضن بها.

(٣٧) فسق: خرج منها إلى الضلال. والتلاد: القديم الموروث الذي يولد معك.

(٣٨) استغواه: طلب غوايته وضلاله. وانسلخ: نزع نفسه منه. والركاز: أصله، قطع الذهب والفضة المركوزة المدفونة في باطن الأرض. والجبلة: الطبيعة الراسخة التي يبنى عليها الخلق. يعتسفه: يركب طريقه بلا روية ولاهداية ولا أناة.

(٣٩) الضراوة: اعتياد الشيء حتى لايكاد المرء يصبر عنه. والنهمة: الشهوة التي تسوق النفس فلا تكاد تنتهي. انبت: أتعب دابته في السير حتى انقطعت بلا رجعة. والفلاة: الصحراء المنقطعة لا ماء بها ولا أنيس. مطموسة: دارسة لا أثر فيها.

(٤٠) عضل: ضاق فلم يدخل ولم يخرج.

(٤١) الخبء: المخبوء. التليد: القديم الموروث. استوى: بلغ غاية نمائه واعتدل. واستحصد: حان له أن يؤتي حصاده.

(٤٢) يعتمله: يجاهد في عمله.

(٤٣) يرف: يبرق ويتلألأ.

(٤٤) يسفر: يشرق ويبين ويتوضح، والمدب: موضع دبيب الأقدام. والدروس: ذهاب الآثار وامحاؤها. والعفاء: تراكم التراب الذي يطمس الآثار. استشرى البرق: تتابع لمعانه. الوميض: لمعان البرق

القوس العذراء

في نواحي الغيم. يفصم: ينفصل عنه دون أن ينقطع السبب بينه وبين عمله.

(٤٥) الحشاشة: روح القلب، ورمق حياة النفس.

(٤٦) الصبوة: الحنين الداعي إلى الميل مع الهوى.

(٤٧) الإرث: الأصل الموروث.

(٤٨) السليقة: الطبيعة التي لاتحتاج إلى تعلم. معرق: أصيل، له عروق ممتدة إلى أصوله.

(٤٩) عرض البشر: غمارهم وكثرتهم، بلا تحديد أو تعيين.

(٥٠) صابر: تكلف معها الصبر على عنت ومشقة. نفساً: قليلا ينفس عنه.

(٥١) توجست: تسمعت إلى صوته الخفي على خوف.

(٥٢) بيضة الصيف شدة حره. مجثمه: جثومه في مكمنه لا يتحرك. والقترة: حفرة الصائد يكمن فيها. قليل التلاد: لا مال له موروث. والمهاد: الموضع الذي يمهده لنفسه. شريعة الماء: الموضع الذي ينحدر إلى الماء

(٥٣) الغيل: الشجر الكثير الملتف. نماها: رفعها وسواها وانتسبت إليه

(٥٤) اجتباها: اختارها واصطفاها.

(٥٥) انغل: تغلغل بين شجرها. الحشا: الجوف. العيص: الشجر النابت بعضه في أصول بعض.

(٥٦) أنحى: وجه وسدد. اختلاها: جزها وقطعها.

(٥٧) اللحاء: قشر العود من الشجر.

(٥٨) ذاق القوس: جذب وترها لينظر ماشدتها.

(٥٩) يهمي: يسقط ويسيل.

(٦٠) رداها: جعله لها رداء والبز: الثياب.

(٦١) سفاها: دعاء عليه بخسران نفسه.

(٦٢) ثياب الخال: ثياب رقيقة تصنع ببلدة الخال. العصب: برود كانت تصنع باليمن، يعصب غزلها ويجمع ثم يصبغ فيأتي موشيً لبقاء ماعصب منه أبيض لم يأخذه صبغ. والموشى: المختلط الألوان.

(٦٣) الأديم: الجلد المدبوغ. المقروظ: المدبوغ بالقرظ. أربى: زاد ماله وارتفع على مايستحقه. شراها: باعها.

(٦٤) شاه الوجه: صار قبيحاً مشوهاً تكرهه النفس.

(٦٥) اشتراها: باعها.

(٦٦) تاه: من التيه، وهو العجب والفرح.

(٦٧) استهل المطر: هطل واشتد انصبابه.

(٦٨) احتفل السيل: جاء بملء جنبي الوادي.

(٦٩) ابتزها: غلبها وغصبها وسلبها، والبلابل: وساوس القلب التي تضطرب فيه. الوجل: شدة الخوف.

(٧٠) مثل: انتصب قائماً.

(٧١) ذو الأراكة: موضع ماء. النهل: أول الشرب عند ورد مناهل الماء.

(٧٢) راجفات الحذر: التي ترجف بالقلب، حتى يضطرب اضطرابا شديدا.

(٧٣) لواها: صرف وجوهها عن الشرب.

(٧٤) الخصاصة: الجوع والفقر والحاجة وسوء الحال. والبئيس: الفقير البائس الشديد البؤس.

(٧٥) مستنهضات الفرار: التي تنهض به داعية الفرار.

(٧٦) فاقعة: خالصة اللون مشرقة.

(٧٧) الحائمات: التي تحوم الماء عطاشاً. الحتف: الهلاك. أظل: دنا وقرب، وألقى على الشيء ظله.

(٧٨) المنسدل: الطويل المسترخي المرسل.

(٧٩) عضل: داهية منكر شديد الغلبة.

(٨٠) صلى: دعا وعظم الله وقدسه. هل: فرح وصاح.

(٨١) الكن: المكان الذي يسترها ويحجبها عن العيون.

(٨٢) مهدلة: مرخاة متدلية. الأسل: نبات دقيق القضبان طويل شديد الاستواء.

(٨٣) يبيس: يابس. ذو شوكة: ذو شوك. أشرطها نفسه: أعد لها نفسه، إما أن ينالها أو يهلك، غير مبال.

(٨٤) انغل: تغلغل. المختبل: الذاهب العقل.

(٨٥) يحت اليبيس: يستأصل اليابس ويرميه. ويردي: يسقط الرطب. ويغمض: يوغل.

(٨٦) حيهل: كلمة تقال للحث والاستعجال.

(٨٧) أنحى: وجه ناحيتها. اللسان الحديد: هو المبراة الحادة القاطعة. خصيم: شديد الخصومة. جدل: شديد اللدد في الخصومة.

(٨٨) شريس: شديد الشراسة. عتى: طال تمرده وكبره. قديم الأجل: متقادم العمر.

(٨٩) الجذل: الفرح الذي يهز الأعطاف.

(٩٠) تسترق: تسرق خلسة مرة بعد مرة.

(٩١) المقتبل: الذي سوف يستقبله.

(٩٢) الخلة: الصداقة التي تتخلل النفس.

(٩٣) اللحاء: قشر العود من الشجر. الخضل: الناعم الرطب الندي.

(٩٤) البذاذة: رثاثة الهيئة وسوء الحال.

(٩٥) لهيف: شديد التلهف والأسى مخافة أن تتلف وقد أشرف على صنعها.

(٩٦) تمحص: سقط عنها فخلصت منه واشتدت. أملودها: قوامها اللدن الناعم.

(٩٧) النشوز: العصيان وترك الطاعة.

(٩٨) الثقاف: حديدة في طرفها خرق يتسع للقوس، ليقوم عوجها، الممتثل: المحتذي بالأمر الذي يؤمر به.

(٩٩) انجفل: ارتاع فارتد مسرعاً.

(١٠٠) الطريدة: قصبة مجوفة بقدر ما يلزم القوس، فيها سفن خشن، والسفن (بفتحتين) هو ما يسمى (السنفرة).

(١٠١) محل: شديد المكر والقوة.

(١٠٢) ريا: ناعمة يبرق فيها ماء الصفاء.

(١٠٣) ضغنها: عسرها والتواؤها وصعوبة انقيادها.

(١٠٤) الحصان: الحرة الممتنعة التي تعف عن الريبة.
(١٠٥) جهل: استزله الشيطان واستخفه.
(١٠٦) العمل: الذي يحسن العمل والحركة فيما يعمل.
(١٠٧) أذؤب: (جمع ذئب).
(١٠٨) على أربع: أي على أربع طاقات. وهو أكرم للوتر وأقوى.
(١٠٩) حنت: رجعت صوتها ترجيع المشتاق أو الباكي. المضل: الذي قد ضل عنه أحبابه أو فارقوه، فهو ينشدهم.
(١١٠) كفلها: جعلها تكفله وتضمه إليها كالأم. الصغير من بني أمها: أخوها السهم.
(١١١) أنبض القوس: جذب وترها ثم أرسله: فيسمع له صوت كالبكاء.
(١١٢) أرنت: صاحت صياح النائحة الحزينة.
(١١٣) يفجعها: ينزل بها الفجيعة بعد الفجيعة.
(١١٤) أعرض الظبي: أمكن الرامي من عرضه، أي جانبه.
(١١٥) قفاد: تبعه وجاء بعده، اضمحل: سقط وانقشع.
(١١٦) تناسمه: تهدي إليه نسيمها، والشذا: الرائحة الطيبة.
(١١٧) ساهرها: بات معها ساهراً. يزدهيه: يستخف لبه العرف: الرائحة الطيبة يعرف بها صاحبها.
(١١٨) العيبة: وعاء من أدم تحفظ فيه الثياب. الخمل: هدب القطيفة وزئبرها.
(١١٩) قرير: قد أخذته قرة البرد، وهو أشده، والسمل: الثوب الخلق الدريس البالي.
(١٢٠) ثمل: أخذ فيه الشراب والسكر.
(١٢١) أمنة: أمان من الخوف. غواشي الوجل: ما يغشاه من المخاوف.
(١٢٢) الوهاد: الأرض المنخفضة. النجاد: الأرض المرتفعة. القلل (جمع قلة): وهو رأس الجبل.
(١٢٣) الصل: حية تقتل إذا نهشت من ساعتها، لا تنفع فيها الرقية.
(١٢٤) البائدات الأول: طسم وجديس وجرهم، وما باد من العرب العاربة.
(١٢٥) الدمدمة: صوت مزعج يرجف على الناس ويطبق.
(١٢٦) ساع يقر: بينا هو يسعى هنا وهناك، إذ ثبت مكانه. أفل: غاب وهوى.
(١٢٧) الصديق، والخل: يقال للمذكر والمؤنث جميعا. والخلالة: الصداقة التي تتخلل النفوس.
(١٢٨) تستهل: ترفع الصوت إهلالا بالحج، وتلبية لله سبحانه.
(١٢٩) المهل: الاستنظار والتؤدة.
(١٣٠) ظماء القطا: القطا الوارد الماء. محتفل: فيه محافل الناس ومجامعهم
(١٣١) جافلة: مذعورة تكاد ترتد. جذوة النار: الجمرة الملتهبة.
(١٣٢) الكاسر: الذي ضم جناحين وانقض: تقاذف: هوى على عجل. شعفات الجبل: رؤوسه وقممه.
(١٣٣) تؤج: تتلهب، ويسمع لتلهبها صوت، وهو أجيج النار.
(١٣٤) المختتل: المخادع الذي يطلب غفلة الصيد.
(١٣٥) تنكب القوس: وضعها على منكبه.
(١٣٦) المئآد: المعوج. اعتمل: جاهد في عملها.
(١٣٧) ماكرة: كلمة مكر.
(١٣٨) المحال: الكيد والمكر الشديد الخفي. ذليق اللسان: فصيح اللسان طليقه.
(١٣٩) راز الشيء: وضعه في كفه ليعرف ثقله وامتحنه، ومعاطف القوس: مقدار انعطافها إذا حناها وشد وترها.
(١٤٠) الهبل: ثكل الولد.
(١٤١) خالسها: نظر إليها خلسة. خفضت: سكنت. الغوارب: أعالي الموج. الجاش: رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع. الوهل: الفزع الملحق بالجنون.
(١٤٢) التلاد: المال الموروث الذي ولد عندك. الجلل: الجليل العظيم القدر.
(١٤٣) تشتريها: تبيعها.
(١٤٤) البخل (بفتحتين)، هو البخل.
(١٤٥) باسمها: نظر إليها نظرة سخر مبتسم.
(١٤٦) نضحت: فضت مكرها كالعرق، دع عنك: احذر، تغتفل: تؤخذ من غفلتك.
(١٤٧) الشرعبي: ثياب جياد سابغة. السيراء: برد فيه سيور يخالطها الحرير.
(١٤٨) التجار (جمع تاجر).
(١٤٩) جلاها: صقلها. الهرقلي: الرومي، نسبة إلى هرقل الملك.
(١٥٠) خال: مكان تضع فيه البرود الجيدة.
(١٥١) الغدير: مكان يغادر السيل فيه بعض الماء. والوشل: الماء يتحلب من جبل أو صخرة، يقطر قليلا قليلا، لا يتصل قطره.
(١٥٢) الأديم: الجلد المدبوغ اللين. الخصل (جمع خصلة): وهي لفيفة من الشعر المجتمع.
(١٥٣) غمغمة: الكلام الذي لا يتبينه السامع، والنغية: كلمة ذات نغمة. الزاري: العائب المظهر للاحتقار.
(١٥٤) الإسار: الأسر. والسوام: المساومة في البيع. والشراك (جمع شرك): وهو حبالة الصائد يرتبك فيها الصيد. احتبل: وقع في حبالة الصائد.
(١٥٥) السورة المنزلة الرفيعة المشرفة الظاهرة. خلجات الخبل: مايتجاذب المخبول من الاضطراب، فتتفكك أوصاله، ويتمايل يمنة ويسرة.
(١٥٦) القلات (جمع قلت، بسكون اللام): نقرة في الجبل يقطر فيها ماء واشل من سقف أو كهف، وهو أصفى ماء. والعرنين: الأنف تحت مجتمع الحاجبين، حيث يكون الشمم، وهو دليل على كرم الأصل.
(١٥٧) الزاكي: النابت في نعمة وخصب وكرم، والسراء: المروءة والسخاء والشرف.
(١٥٨) كاده بعقله: احتال عليه وغلب عقله. المحل: الشديد المكر والدهاء.
(١٥٩) ويك: مثل، ويلك، تعجب وتهديد، السفاه: السفه والطيش. الخدين: الصديق المصاحب. والخل: الصديق المتداخل المودة.
(١٦٠) النكر: الدهاء المنكر الخبيث: اهتبل الفرصة: اغتنمها وافترصها على غفلة.
(١٦١) السفل (جمع سفلة): وهُم أراذل الناس وسقاطهم.
(١٦٢) حباه: أعطاه فأكرمه. فاطر النيرات: المبتدئ خلق الكواكب

القوس العذراء

المنيرة. وباري النبات: خالقه.

(١٦٣) الهون: الهوان والخزي. والقل: القلة والنقص.

(١٦٤) أجش: فيه جشة أي: غلظ وبحة. صل الصوت: إذا خالطته حدة كأنها صوت حديد على الصفا. اختبل: أخذه الخبل، كالمجنون المضطرب.

(١٦٥) أشفى: أشرف. يستقل: ينهض.

(١٦٦) وعوعة: صوت مختلط كوعوعة الكلاب، والزجل: الجلبة كأصوات اللاعبين.

(١٦٧) يؤج:يصوت بكلام مرتفع سريع. ويعج: يصيح صياحاً عالياً كالهدير. ويخور: يصيح بصوت غليظ كخوار الثور. وصهل: أخرج صوتاً مبحوحاً كصهيل الخيل.

(١٦٨) الحشرجة: غرغرة الميت، وتردد نفسه.

(١٦٩) الحميم: الماء الحار. تستهل: تنصب.

(١٧٠) لاعج: محرق. الخبل: اضطراب الجنون.

(١٧١) هيص: انكسر وتدلى. واعتقل: حبس ومنع الكلام.

(١٧٢) تخاذل: تتخاذل، يخذل بعضها بعضاً.

(١٧٣) السوام: المساومة في البيع، والأروم: أصل الشجرة إذا ماتت وسقطت أغصانها. مثل: انتصب.

(١٧٤) صلود: صلب أملس. عتل: غليظ ثقيل ثابت.

(١٧٥) الدبى: الجراد قبل أن يطير، تنزى: تثب وتنقز. دهاه: غشيه وأصابه، والطل: المطر الخفيف.

(١٧٦) كركر الضاحك: ردد الضحك.

(١٧٧) السمت: الهيئة.

(١٧٨) هينمة: الكلام الخفي كالدندنة. غمغمت: اختلطت ولم تتبين.

(١٧٩) الوغى: الصوت المتداخل كأصوات النحل المجتمع. يصل: يكون له صوت كأصوات أجواف الخيل إذا عطشت.

(١٨٠) أسفر: أشرق. انجاب: انكشف. المخبت: الخاشع المتضائل.

(١٨١) سبتة: سكون وإطراق بلا حراك.

(١٨٢) الوقيذ: المريض الدنف المشفي على الهلاك.

(١٨٣) هام محلقة: رؤوس محلوقة. رجف (جمع راجف): ترتجف وتضطرب. نزيع البصل: المنزوع بجذوره.

(١٨٤) أغربة (جمع غراب).

(١٨٥) الحيازيم (جمع حيزوم): وهو ما اكتنف الحلقوم والقلل: الرؤوس، والحية تفعل ذلك وهي تتشمس.

(١٨٦) أزفلة: الجماعة تأتي مسرعة. والضباع: من لئام الحيوان. تخمع: تعرج. همل: مهملة ملقاة.

(١٨٧) الضباب تخرج من جحورها إذا دهمها السيل.

(١٨٨) الأعطاف (جمع عطف): وهو الجانب، من الرأس إلى الورك.

(١٨٩) الكبل: القيد الضخم الثقيل. والغل: القيد الذي يجمع الأيدي إلى الأعناق.

(١٩٠) الناشط: الجاذب الدلو من البئر. والرشاء: حبل الدلو الطويل.

(١٩١) ملجلجة: مترددة ثقيلة لاتكاد تخرج أو تدخل: هلل: فزع وفرق ونكوص.

(١٩٢) ركين: عالي الأركان ثقيل.

(١٩٣) لأيا بلأي: بعد مشقة وجهد وإبطاء واحتباس.

(١٩٤) خامره: غشي نفسه. أبل: برأ من مرضه وأفاق.

(١٩٥) تزهر: تتلألأ. تأتكل: تتوهج كالنار إذا اشتد لهبها، وأكل بعضها بعضا.

(١٩٦) انتحى: اعتزل ناحية.

(١٩٧) الغلل (جمع غلة): وهي حرارة الحزن.

(١٩٨) المضمرات: البعيدة التي يخفى مكانها، والغيوب (جمع غيب): هو الأرض المطمئنة، التي يغيب فيها سالكها، والبلابل: قلقات الهموم. والسجل: الكتاب أوالصك الذي يطوى. نوافذ: ماضيات، كالسهام تنفذ في النفس . تفتضل: تترامى وتختصم.

(١٩٩) تدجى: لبسه الظلام.

(٢٠٠) الآية: العلامة العجيبة، وهي يده. نصل: طفيء لونها وذهب.

(٢٠١) أسرار الكف: خطوطها التي تدل على المغيب من أسرارها.

(٢٠٢) السحق: البالي المنسحق. تهتك: تخرق وتساقط. الأديم: الجلد المدبوغ. النغل: الذي فسد دباغه فتفتت وترفت.

(٢٠٣) السنا: الضوء العالي.

(٢٠٤) بهيم: مظلم لا ضوء فيه، ولا منفذ لبصر.

(٢٠٥) تلاوذ: تدور كأنها تطلب ماتلوذ به. اللغز: الطريق الملتوي المشكل يضل سالكه. الداجي: الساتر الذي يلبس ما فيه ويستره. والدغل: الشجر الملتف المشتبك النبت. أسودة (جمع سواد): وهو شخص الشيء، لأنه يرى من بعيد أسود. خطفت: تسرع كالشعاع الخاطف.

(٢٠٦) هدل: غنى غناء الحمام.

(٢٠٧) السدف: (جمع سدفة): ظلمة مختلطة بضوء يشوبها. الضال: السدر ينبت في السهول. تسوى من قضبانه السهام.

(٢٠٨) الكلل (جمع كلة): وهي الستر الرقيق، كالذي تكون فيه العروس.

(٢٠٩) المستوفز: هو القاعد إذا استقل على رجليه يتهيأ للقيام، ولما يستو قائما بعد.

(٢١٠) استهل: رفع صوته بالإهلال والتلبية لله سبحانه.

القوس العذراء

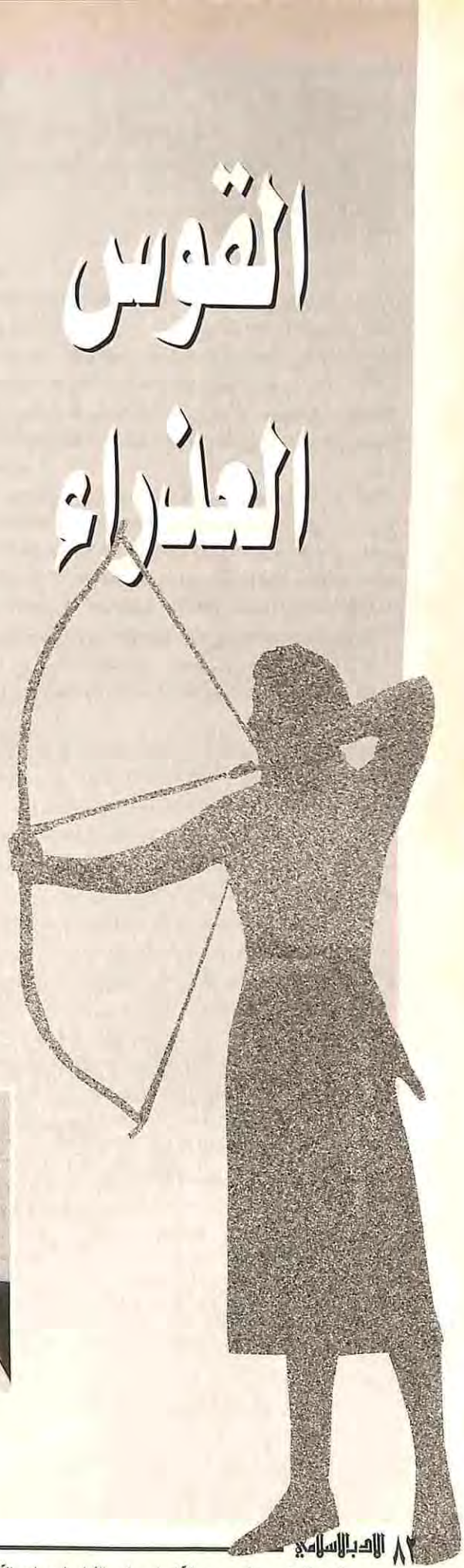

درة ساطعة هذه بين سائر الدرر، و«آية هذه من الفن محكمة» بين آيات الفن المحكمات، وقعت عليها وأنا أدور بالبصر العجلان في سوق الكتب الحديثة الصدور، فكنت - حين وقع عليها البصر - كمن كان ينبش قي أديم الأرض بين المدر والحصى، ثم لاحت له بغتة - لتخطف منه البصر ببريقها - لؤلؤة.

هو كتاب من ست وسبعين صفحة صغيرة، رقمت أسطرها صفحة صفحة، كما ترقم حبات الجوهر الحر يضعها الخازن في صندوق الذخائر، لكي لا تفلت منها عن الرائي جوهرة ولو قد كانت لي الكلمة عند طبع الكتاب، لأمرت بترقيم محتواه لفظة لفظة، لأن كل لفظة من كل سطر لؤلؤة.

□□□

وللكتاب قصة ترويها صفحاته، فإذا هي قصة الفن الخالد كيف تنبثق آثاره من ينبوع الفطرة الإنسانية، فيظل يتلقفه على مر العصور كل ذي فطرة سوية، يتملاه ثم يضيف إليه، ولقصة الكتاب ما يشبه التمهيد لها: لقاء ذات يوم بين رجلين اتفق فيهما الطبع الراسخ بجذوره على عقيدة مؤمنة بتجويد العمل كائنا ما كان، وفي هذا التجويد بلغنا رسول الله عن ربه بلاغاً يضيء لكل حي نهج حياته، ويمسك عليه هدي فطرته، إذ قال: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**».. وأما الرجلان اللذان التقيا ذات يوم عن طبع مشترك في إتقان العمل، فهما أديبنا الكاتب الشاعر الأستاذ محمود محمد شاكر، والأستاذ شفيق متري صاحب دار المعارف - ولم يكونا قد التقيا من قبل (فيما يروي الأستاذ عادل الغضبان في ضميمة قصيرة ألحقها بالكتاب) - «وتطرق الحديث بين الرجلين إلى الكلام على العمل وتجويده، والفن وسحر أواخيه، فإذا بالرجلين روحان مؤتلفان متعارفان» وأراد الأستاذ شاكر

بقلم الدكتور:
زكي نجيب محمود

القوس العذراء

أن يخلد هذا اللقاء وما دار فيه من حديث عن العمل المتقن وصلته بالفن، فكيف خلده؟

دار في نفسه أول ما دار أن **لا فرق بين العمل يتقنه صاحبه ويضع قلبه فيه، وبين الفن المبدع الخلاق، وليس نقاد الفن جميعا على رأي واحد في ذلك، فمنهم من يفرق بين العمل يراد لنفعه وثمرته، والفن يراد لذاته ولنشوة النفس بما فيه، وأن هذا الفرق بين العمل الجيد والفن المبدع ليظل قائما، مهما بلغ العمل من أبعاد الجودة والإتقان**، وأما أديبنا شاكر فلا يميز بين عمل جاد وفن أبدع.

وعن هذه العقيدة عنده في العمل والفن، أمسك القلم ليكتب ـ بادئ ذي بدء ـ رائعة من روائع النثر، يميز فيها الإنسان من سائر الأحياء والأشياء، في أن هذه تسير على نهج لا يتغير ولا يتبدل: «تولد الذرة من النمال، وتنمو، وتبدأ سيرتها في الحياة، وتعمل فيها عملها الجد، وتفرغ من حق وجودها، حتى تقضي نحبها وتموت هكذا هي مذ كانت الأرض وكانت النمال: لا تتحول عن نهج، ولا تمرق من هدي، وتاريخ أحدثها ميلادا في معمعة الحياة، كتاريخ أعرق أسلافها هلاكا في حومة الفناء لا هي تحدث لنفسها نهجا لم يكن، ولا هي تبتدع لوارثها هديا لم يتقدم».

ذلك شأن الحيوان يسلك المسالك بغريزته، وشأن الجماد يسير على سنة الله في خلقه، يجيء عمل الحيوان وسير الجماد، أتم ما يكون العمل وأكمل ما يكون السير لكنهما يجيدان عن غير وعي ولا مشيئة، وعن غير حب ـ ولا كراهية ـ لما يعملان، وأما الإنسان فشأنه آخر، لا يجيء حقه على نهج سابقه، فله مشيئة حرة ومن ثم كانت حيرته: «جار وعدل، فعرف وجرب. أخطأ وأصاب، ففكر وتدبر...

جاشت نفسه حتى اندفقت صبابة منها فيما يعمل، وتضرم قلبه، حتى ترك ميسمه فيما أنشأ، فتبدله بصنع يديه، لأنه استودعه طائفة من نفسه، وفتن بما استجاد منه، لأنه أفنى فيه ضراما من قلبه، وإذا هو يستخفه الزهو بما حاز منه وملك، ويضنيه الأسى عليه إذا ضاع أو هلك».

بهذه النغمة الشجية القوية طفق أديبنا شاكر يكتب بضع صفحات من النثر، يبث فيها نظرته **أن الإنسان ـ لا كسائر الأحياء والأشياء ـ تصله وشائج النفس والقلب بصنع يديه إذا هو استودعه طائفة من نفسه وضراما من قلبه، فعندئذ يزهى بما صنع، ويأسى له إذا ضاع، ولعمري تلك من خصائص الفن عند مبدعه، وإذن فلا فرق بين صناعة ـ هذا شأنها ـ وفن.**

ثم ماذا؟.

ثم يقع أديبنا شاكر بين ذخائر الأدب العربي القديم على ذخر نفيس، تتأيد به نظرته إلى العمل المتقن كيف تربطه الروابط بصانعه حتى لكأنه قطعة منه، بل إنه لكذلك، لأنه بعض لحمه ودمه، وزفرة من نفسه ونفثة من قلبه، وأما الذخر النفيس الذي وقع عليه أديبنا شاكر، فقصيدة للشماخ، وهو صحابي أدرك الجاهلية ثم أسلم، يصف بها قواسا كيف صنع قوسا فأجاد، فتعلق بها قلبه، ولما باعها وذهب بها شاريها، نظر إلى المال في يده ـ على كثرته ـ فاذا هو الهباءة التافهة قياسا إلى قطعة الفن التي ضاعت.

وقصيدة الشماخ التي تروي قصة القواس وقوسه، عدد أبياتها ثلاثة وعشرون، تجيء في أول الكتاب مشروحة، لتأتي بعدها الرائعة النثرية التي حدثتك عنها، كتبها أديبنا محمود شاكر بيانا لصلة القربى بين العمل والفن، وإعلانا بأن العمل الذي لا يبلغ مبلغ الفن، يكون دليلا على فساد الفطرة عند صانعه.

ثم ماذا؟.

ثم يأتي قلب اللؤلؤة ولبابها، إذ يلتقي في إبداع الفن شاعران، أحدهما هو الشماخ بقصيدته، والثاني هو محمود شاكر الشاعر، فتلقاك إزاء نسج محبوك، تتضافر فيه أبيات من قصيدة الشماخ مع أبيات من قصيدة شاكر، فخمسة وأربعون بيتا يمهد بها شاكر، تجيء بعدها ثلاثة أبيات من الشماخ، فعشرة من عند شاكر، فخمسة من الشماخ، فسبعة عشر من هنا، فاثنان من هناك، وستة عشر من هنا، وثلاثة من هناك، وعشرون من شاكر، واثنان من الشماخ، وثمانية من شاكر فخمسة من الشماخ، فسبعة وخمسون من شاكر يتلوها بيتان من الشماخ، فستة وثلاثون من شاكر، يجيء بعدها بيت واحد هو ختام قصيدة الشماخ، ثم يختم شاكر قصته بخمسة وسبعين بيتا.

فما القواس وقوسه، وماذا فيهما من عبرة لمن يعتبر؟.

كانت القوس في ضمير الغيب، حين كانت في كنف منيع من شجر، لينمو عودها في مأمن وعلى مهل، لكن عامرا القواس شقت عينه الحجب إليها، وطفق يتغلغل في غصون الشجر الملتفة المتشابكة النابت بعضها في أصول بعض، حتى بلغ مكمن العود، فاستودعه الشمس عامين كاملين، لا يرفع عينه عنه، ولبث العود يمتص ماء لحائه، وبعدئذ أخذ القواس في مناجاة قوسه حتى لانت بين أصابعه، فلواها، وسواها ثم سواها، فلما أن اكتملت قوسا، إذا ما

فارقها السهم رنت وأعولت، وريع الوحش من هاتف السهم المنقض، إلا أن القوس ـ من كثرة ما عاناه باريها ـ لم تعد في عينه قوسا، بل تبدلت في عينه غادة معشوقة حسناء، يلفها في الحرير، وهو في أسماله، ووافى موسم الحج فاصطحب القواس معشوقته، إليه، فلمحها محب فانبرى كالصقر ينقض إليها، وقدم لصاحبها أغلى الثمن ليشتريها، إذ قدم الذهب والفضة وثياب الحرير ومقروظ الجلد، ولو كان القواس يبتغي الثراء من قوسه لوجد بغيته، ولكنه نظر إلى المال وإلى القوس، فوجد نفسه وقلبه وروحه في هذه، وأما ذاك فلم يجد فيه إلا عرضا يزول، لا تربطه بالنفس آصرة، فأبى أن يبيع قوسه، لكن غواية الناس من حوله مالت به حيث لم يكن هواه، فباع القوس، وأخذها الشاري وغاب بها عن مرمى النظر، فالتفت إلى المال في كفه، فإذا الكف كأنها خالية، فبكى.

ولست أدري كيف أقص عليك على أي صورة جاء حديث القواس وقوسه في شعر الشماخ وفي شعر شاكر، إلا أن تقرأ شعرهما لتقف ـ كما وقفت ـ ذاهلا أمام هذا البناء الفني القوي المكين، ثم لا تكاد تفرغ من تلاوة هذا الشعر الرائع حتى تراك منقادا بقوة الجذب إلى قراءته من جديد، لتنعم بعظمة النفس الإنسانية حين تبلغ ذروة الإجادة، وكم إجادة هنا؟ إجادة القواس في صناعة قوسه، وهو الذي تدور حول إجادته الرواية، وإجادة الشماخ في قصيدته الصلبة العبقرية التي تسير بين كلماتها وكأنك تسير في مفاوز جبل أشم يروعك بشموخه ويقطع عليك الأنفاس بجبروته، وإجادة شاعرنا محمود شاكر، الذي كدنا لا نعرفه شاعرا حتى أطل علينا بهذه الروعة الرائعة، وفوق هذا وهذا وذاك إجادة شاعر ثالث هو محمود حسن إسماعيل الذي قدم للكتاب بقصيدة عن تلك القوس الموحية البليغة هي من غر القصيد.

نعم إنني لا أدري كيف أقص عليك قصة **القوس العذراء** على أي صورة جاءت شعرا إلا إن تقرأ الشعر نفسه، وحسبي أن اقدم لك نتفا من فن شاكر في شعره، فهو الذي تقمص روح القواس في عشقه لقوسه التي براها فأتقن تقمصه حتى لقد انقلبت القوس في فؤاده ـ فؤاد محمود شاكر ـ غادة يتعشقها، تنصاع له فيهوى، وتتمرد عليه فينالها تأديبا وتهذيبا:

عصته وساءته أخلاقها
نشوزا.. فلما التوت كالمدل
أعد الثقاف لها عاشق
يؤدبها أدب الممتثل
وعض عليها فصاحت له
فأشفق إشفاقة وانجفل

ويمضي الشاعر في وصفه لمعالجة القواس قوسه طوال عامين كاملين، حتى انتهى الأمر بأن: أطاعته من بعد أن لوعته بالوجد عامين حتى نحل، ولما اكتملت له صناعتها، أهدى لها حلية صاغها بكفيه، حلية تخيرها من حشا الذئاب، وأعد لها وترا كالشعاع، وبعدئذ ضم إلى حضنها سهما مريشا كأنه أخ لها صغير.

فضمت عليه الحشا رحمة
وكادت تكلمه... لو عقل

فجن جنون المحب الغيور...

فجذب المحب الغيران وتر القوس، وأرسل السهم الذي ما كاد يضعه بيديه في كفالة أخته الكبرى، حتى أخذته منه الغيرة، وبات الرجل وقوسه الجميلة ليلة معشوقة كأنما هما الحبيبان يتغازلان. وما شهد قطرات الندي على جسدها الأملد، حتى أسرع إلى ثوب من المخمل يلفها به.

كساها حفيّ بها عاشق!
إذا أفرط الحب يوما قتل
فألبسها الدفء ضنّا بها..
وبات قريرا.. عليه سَمَل

ولبثت القوس في صحبة باريها دهرا، تمتع بأيامها وليلاتها، ناعما برفقتها على بؤسه وفقره، كأنما هي الجنة أفاء بظلها وتدلت بأثمارها، فهي تصاحبه في هجير القفار وفي ظلم الليل أنى نزل، فيحرسها وهي في أمنه، وتحرسه هي إن أخذته غواشي الوجل، فكنت تراه في صحبة قوسه الحارسة يجوب الوهاد، ويعلو النجاد، ويأوي الكهوف، ويرقى القلل، ويفضي إلى مستقر الحتوف، فهاهنا نمر وهاهنا ذئب وهنالك الحية الفاتكة... وفيم الضرب في تلك المجاهل التي لم يكن بها من أنيس؟ إنه أراد أن يعلم قوسه الحبيبة كيف كان الزمان وكيف كان مجد القديم، وكيف كانت ظروف الدهر، وهكذا لبث الرفيقان، حتى حان موسم الحج.. فلبيا.

وبين الحجيج رآها الخاطب الذي لم يزل بصاحبها إغراء بالمال حتى نالها منه، لكن القوس كائن حي ينتزع من كائن حي، فكأنها كانت تحس ما يجري فنظرت إلى سيدها وباريها لتدعو: يا خليلي! ماذا فعلت؟ أأسلمتني؟! فتنهش الحسرة قلب الرجل نهشا، ويتردد ويتراجع، فيزيد الخاطب من مهر عروسه.

وحولهما زفرات الزحام، وأذن تميل، ورأس يطل وغمغمة، وحديث خفي، ونغية زار، وآت سأل. وظل الرجل الحيران يحاور نفسه من داخل: أيبيع قوسه؟ نعم، لا! وحوله أصوات الزحام: صوت أجش، وصوت يصل، وطنين، وهمس، وضوضاء وعوعة في زجل (الزجل هو الجلبة كأصوات

القوس العذراء

اللاعبين) فهذا يؤج.. وهذا يعج.. وهذا يخور.. وهذا صهل، وماذا تقول هذه الأصوات الصاخبة هنا والهامة هناك، تقول:

لقد باع! بع! باع! لا لم يبع
غنى المال! ويحك! بع يا رجل

وهكذا تقرأ لشاعرنا شاكر صفحتين كاملتين فيهما حركة وجلبة وأصوات، وأخيرا يستسلم الرجل ويبيع، وهنا يجيء آخر بيت من قصيدة الشماخ كأنه الرتاج يخبط الخبطة الأخيرة ليقفل الباب ويبدأ الرجل في ذهوله لما أن رأى منكبه قد تعرت عن قوسها، يقول الشماخ في ختام قصيدته:

فلما شراها فاضت العين عبرة
وفي الصدر حزاز من الوجد حامز

نعم باع الصانع صنعته، وضاع من الفنان فنه، فأخذته الغاشية:

أجل.. لا.. أجل بعتها! بعتها!
أجل بعتها! بعتها.. لا.. أجل
وفي أذنيه ضجيج الزحام
و«بع باع بع باع بع يا رجل»
أفق! يا خليلي! أفق لا تكن
حليف الهموم صريع العلل
بصنع يديك تراني لديك
في قد أختي! ونعم البدل
صدقت صدقت! نعم قد صدقت!
وسر يديك كأن لم يزل
حباك به فاطر النيرات
وباري النبات ومرسي الجبل
فقم! واستهل وسبح له
ولب لرب تعالى وجل
وفاضت دموع كمثل الحميم
لذاعة، نارها تستهل
وخانقة ذبحت صوته
وهيض اللسان لها واعتقل
وأغضى على ذلة مطرقا
عليه من الهم مثل الجبل
أقام.. وما إن به من حراك
تخاذل أعضاؤه كالأشل

وبعد أن مرت به ساعة الذهول التي قد صيرته وكأنه صخرة نبتت مكانه، فبات تمثال حزن قُدَّ من صخر صلود، وتركته وحيدا بعد أن خلا المكان من جموع الناس، وسكن الصوت ومات الوغى، أخذ الذاهل يفيق، ويستجمع نشاطه وقوته، ويمشي ثقيلا، والحسرة ماتزال ملء ضلوعه، ينظر إلى ما أخذه لقاء قوسه من مال وثياب، فيزور لأنه أعطى النفيس ورضي بالخسيس... وبينما هو يشق طريقه في متشابك الشجر، لمح عودا كالعود الذي كان سواه قوسا وضاع، إنها عروس أخرى، نادته من خدرها: أفق! يا خليلي! أفق! لا تكن حليف الهموم، صريع العلل.

بصنع يديك تراني لديك
في قد أختي! ونعم البدل
صدقت صدقت!!.. نعم قد صدقت!
وسر يديك كأن لم يزل.
حباك به فاطر النيرات،
وباري النبات، ومرسي الجبل.
فقم! واستهل، وسبح له،
ولب لرب تعالى وجل.

أما بعد فهذه قصة شاعر عن شاعر عن قواس عابر، **قصة تروي أن سعادة الإنسان هي في أن يعمل ما يحب، أما إذا عمل شيئا وأحب شيئا آخر، فقد أصبح العمل بهذا الفصام نقمة أبتلي بها البشر وما كان ينبغي له**، وفي هذا الصدد أذكر الأدباء الطوباويين ممن أعرف، مثل صموئيل بتلر في كتابه «أرون» (أي اللا مكان) حيث يقص علينا كيف زار بلد النعيم، فإذا سر النعيم هو أن العمل فن وأن الفن عمل، فلكل إنسان من العمل ما يحب، وبهذا تنزاح الفواصل بين اللعب والجد، وبين الوسيلة والغاية... وهذه هي نفسها الرؤيا التي اختلج بها قلب شاعرين عربيين: الشماخ في صدر الإسلام، ومحمود شاكر في دنيا اليوم، وتوصل الشاعران حتى لكأنهما شاعر واحدأانشد في أول الدهر نشيدا فرجعت أواسط الدهر أصداء النشيد. وإني لأستاذن أديبنا شاكر في أن أهدي آيته هذه إلى شعراء اليوم ليروا بآذانهم وليسمعوا بعيونهم ـ إذا كانت للآذان رؤية وإذا كان للعيون سمع ـ كيف يكون الفن الشعري صياغة وارتفاعا في دنيا القيم من حضيض إلى أوج.

■■ هوامش:

نشر هذا المقال في مجلة «الكاتب العربي» ـ العدد ١٥ ـ سنة ١٩٦٥م ـ من ص ١١ إلى ص ١٥.

القوس العـــ

□□ للقوس في الأدب العربي ـ منذ أقدم عصوره ـ وجود يتجاوز حدود الواقع إلى الرمز، فمنذ أن جعل حاجب بن زرارة قوسه رهينة لقاء أمر خطير، لم يكن ينظر إلى قيمة تلك القوس في حقيقة الواقع العملي، ومنذ أن أصبحت ندامة الكسعي الذي حطم قوسه ـ أعني مصدر رزقه ومعقد أمله ـ مضرب المثل لكل من ضحى متسرعا جائرا بشيء غال عزيز، حتى ارتبط تسرعه وجوره بالندم والتلوم النفسي، منذ ذلك الحين، لم تعد القوس تقتصر على أن تكون عوداً من نبع، وإنما أصبحت تحمل قيماً جديدة، أو دلالات على قيم جديدة، ذات ارتباط بمشكلات إنسانية كبرى.

الدكتور إحسان عباس

ترى هل كانت قصيدة الشماخ في القوس، تومئ إلى شيء من تلك الدلالات؟ لقد جاء وصف الشماخ للقوس استطراداً، هو أشبه شيء بالموضوع الرئيسي في قصيدته، فقد كان يصف ورود حمر الوحش إلى نبع، وكيف جلس الرامي (واسمه عامر وهو من بني الخضر) لاطئا في قترته يترقب ورودها، ليرمي إحداها بسهمه فيكفل قوته وقوت عياله، وحين تذكر الشماخ أن عامرا ذاك كان صياداً فقيراً، لا يملك إلا أسهماً، وإلا قوسا صفراء من شجر النبع، أخذ يصف نمو الضالة التي اتخذت منها القوس، كيف نمت في مكان مستتر، وتكاثفت دونها الأشجار، إلا أن عينه البصيرة الحاذقة أدركتها، فتغلغل في أعماق الغيل يطلبها، وأنحى عليها شفرة حديدة فقطعها، وأحس أنه بتملكه إياها قد «أصاب غنى» وازور عمن حوله من الناس، ضناً بها، وحرصاً عليها، ثم أخذ يتعهدها مدة عامين، وهو يسقيها ماء لحائها، ثم يقوم جوانبها المعوجة بالثقاف، حتى استوت له كائناً جميلاً ذا صفرة كأنما هو لصفرته مخلق بالزعفران:

وذَاقَ فـأعْطَتْـهُ من اللينِ جَـانبـاً
كَـفَى، وَلَها أنْ يُفْـرِقَ السَّـهْمَ حَاجِـزُ
إذا انْبَضَ الـرامُـون عَنْـهَـا تَـرَنَّمَتْ
تَرَنُّمَ ثَكْلى أوْجَـعَـتْـهَـا الجَـنَائزُ
كـأنَّ عَلَيْـهـا زَعـفـرانـاً تُمـيـرهُ
خَـوازنُ عَطَّـارٍ يَمَـانٍ كَـوَانزُ

وهو لشدة شغفه بها وحرصه عليها، يلفها إذا سقط الندى بالحبرة، ولماحان موسم الحج، كان ذلك القواس في مَنْ أمَّه من الناس وقد تنكب قوسه، فلحظها امرؤ خبير بالقئاس المتقنة، ذو قدرة على السوم، لما يتمتع به من ثراء، فعرض على القواس الفقير من الثمن ما أنساه محبته لقوسه، وأذهل لبه عن مراعاة الرابطة الوثيقة التي نشأت بينه وبينها، وتجمع الناس من حوله يهتفون به: «بايع أخاك»، يغرونه بالربح ويوهنون من تمنعه عن البيع وإبائه، وتخاذل أمام الإغراء الماديّ وصيحات الناس «بايع أخاك» فباع شيئا عزيزا على نفسه، وتملكه ما تملك الكسعي لما

القوس العذراء*

للقوس في الأدب العربي وجود يتجاوز الواقع إلى الرمز

حطم قوسه:

فَلَمَّا شَرَاهَا فَاضَتِ العَيْنُ عبرةً
وفي الصَّدْرِ حَزَازٌ مِنَ الوَجْدِ حَامِزُ

كلا الرجلين ـ أعني الكسعي وهذا القواس الفقير ـ بلغ اللحظة الحرجة التي لا يجدي عندها الندم، إلا أن أحدهما بلغها عن طريق الغضب اليائس، وبلغها الثاني عن طريق الإغراء الخادع، ولكن تلك اللحظة التي تصور نقطة التحول، قد اتخذت في الحالين، نهاية يائسة لضياع الجهد الإنساني، والاستسلام لذلك اليأس، على أن تكون النهاية في قصة الكسعي «درساً أخلاقياً» يثير العبرة، وأن تكون في قصة القواس الفقير محض انفصام مشوب بالدموع، والعلاج النفسيّ، لحظة الفراق.

ولم يكن محمود شاكر يريد الدرس الأخلاقي ـ على ذلك النحو التعليمي ـ ساعة أن تغلغل في الشعر القديم، واستخرج منه قصيدة الشماخ، ليجلوها في رواء جديد، وتوجيه جديد، لأنه كان يعلم أن الفنان لا يكتب دروسا للعبرة، ولا ينصب من نفسه معلما للآخرين، وإنما هو في خير حالاته تلميذ صغير في مدرسة الكون، يعتبر وينقل ويوحي، ويؤثر في النفوس على نحو أقوى من كل تعليم،

كانت المشكلة التي تشغل باله هي العلاقة بين الإنسان والإبداع، إذ رأى أن الإنسان في عمله يختلف عن سائر المخلوقات التي يجيء عملها «نسقا منقادا لا يتغير» حتى كأن عملها يتشكل بقوة الغريزة دون استدراك أو تحسين أو منافسة بين الخالف والسالف، أما الإنسان، فإنه دائماً تواق إلى التفرد في عمله «حتى ترك ميسمه في ما أنشأ، فتدله بصنع يديه، لأنه استودعه طائفة من نفسه، وفتن بما استجاد منه، لأنه أفنى فيه ضراما من قلبه».

وحين تحل اللحظة الحرجة، لحظة الانفصام العلائقي بين الإنسان وعمله «أي عند تحطيم القوس أو بيعها أو فقدها على نحو ما» يقف ملوما محسوراً يتساءل: «فيم أعمل؟ ولم خلقت؟ وفيم أعيش؟». ترى أذلك هو شعور العامل إزاء عمله أم هو شعور الفنان نحو ما أبدعه؟ إن محمود شاكر يؤمن أن العمل قد يقترن «بالنفع» بينما لا يقترن الفن به، ولكن كليهما من منبت واحد، وإن اختلفت سبيلاهما، كلاهما لا يتم خلقا سوياً إلا بالإتقان، فالعمل «في إرث طبيعته فن متمكن والإنسان بسليقة فطرته فنان معرق». وهنا تجيء «قوس الشماخ» نموذجاً لهما في آن، فصانع القوس هو العالم المبدع فيما انتحاه، والشماخ هو الفنان المبدع في وصفه للعمل والعامل، واندماجه فيهما بحرارة التصور الإبداعي لطبيعة العلاقة بينهما، وكأنما هو يعكس طبيعة تلك العلاقة على الصلة بينه وبين الشعر، ومما يؤيد ذلك التطابق بين العامل والفنان، أن القواس البائس الذي تخيل ـ حين قطع فرع الضالة ـ أنه قد أصاب غنى مذخوراً له في مقبل الأيام، لم يستطع أن يجد مقنعا في الغنى حين ناله، وبذلك ذابت فكرة «النفع» التي ساورته في البداية، وانتهى إلى الشعور بعلاقة وجدانية بينه وبين القوس، شبيهة بالعلاقة الوجدانية بين الفنان وما يبدعه.

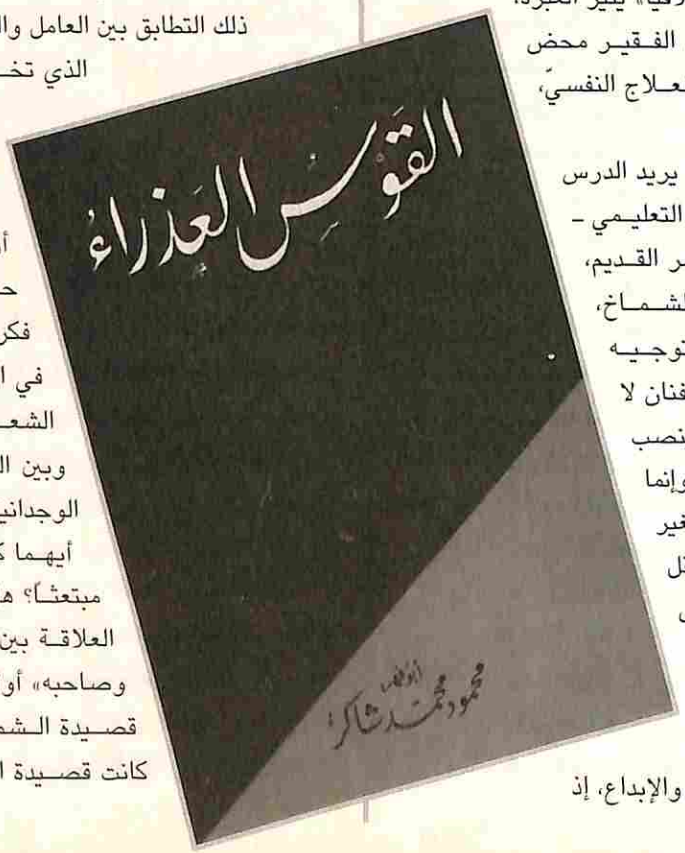

أيهما كان باعثاً وأيهما كان مبتعثاً؟ هل كانت فكرة محمود عن العلاقة بين الفن وصاحبه «والعمل وصاحبه» أولاً، ثم وجد مصداقها في قصيدة الشماخ وقصة القواس؟ أو كانت قصيدة الشماخ وقصتها أولاً ثم

أوحت لنا فيها من تطابق بانقداح الفكرة المحورية، حول العلاقة بين العامل والفنان، ثم بين كل منهما وما يبدعه؟ يكاد هذا السؤال أن يكون شبيهاً بقضية دور، فمعرفة محمود بالتراث، وإحاطته به، وتمثله لأبعاده المختلفة، وحضوره في وجدانه، أمر كالنهار لا يحتاج إلى دليل، وقضية العلاقة بين الفن والفنان قديمة، منذ أن بدأ الإنسان يتحسس وجوده الذي يميزه عن سائر المخلوقات وقد تمرس بها كثير من المبدعين، وتأتوا لإبرازها في صور مختلفة.

وكل ما يمكن أن يقال في هذا الموطن أن قصيدة «القوس العذراء» كانت وليدة «رؤية فنية» في لحظة من لحظات التجلي أو الكشف الذي يرى الأمرين معا متلازمين دون انفصام: فإذا تأمل محمود ـ في تلك اللحظة ـ قضية الإنسان تذكر قصيدة الشماخ، وإذا قرأ قصيدة الشماخ وجد فيها تعبيراً عن قضية الإنسان. ولكن لا نزاع بأن قصيدة الشماخ كانت قبل محمود شيئا مفرداً، منقطع الصلة بمشكلة كبرى، (ولا أود أن أقول شيئا مهملا) حتى أبصر محمود الشاعر المبدع تلك الصلة، فنقل جو القصيدة كله، من ذلك الوجود المفرد، واتخذ منها أنموذجاً، وجعلها رمزاً كبيراً. وقد كان محمود قادراً على أن يبتكر قصة، أو أن يفترع أمثولة من عند نفسه، دون أن يعول على قصة ساذجة رواها شاعر مخضرم، إلا أن الدلالة الكبرى هنا ليست في محاولة الابتكار، بقدر ما هي في العودة إلى التراث، وربط الحاضر بالماضي، وإيداع القوة الرمزية فيما يبدو بسيطاً ساذجا ـ لأول وهلة ـ وفي ذلك كله نوع من الإبداع جديد، وبرهان ساطع على أن تطلّب الرموز في الأساطير الغريبة عن التراث، يدل على جهل به أو على استسهال لاستخدام رموز جاهزة أو عليهما معاً. ولم يكن محمود مدركا وحسب للمعنى الرمزي الذي تمثله القوس في تراثنا الأدبي، بل كان ممتلئ النفس أيضا بقول الرسول الكريم: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**»، وهو دعوة إلى الإبداع في كل صعيد، فاتخذ منطلقه في «القوس العذراء» ظلاً لم يكن له أثر في قصيدة الشماخ.

من أجل ذلك يخطئ من يظن أن «القوس العذراء» ليست سوى قصيدة الشماخ: موسعة الجوانب، مفلسفة، محملة بقوة الرمز، موشحة بعمق رومنطيقي، بل هي كل ذلك مجتمعا، وهي تتجاوز ذلك كله إلى نطاق أرحب. وهذا يقتضي من الدارس أن يبين المواقف التي ينتهي إليها الشماخ، ويبدأ منها محمود شاكر. وفي جلاء هذه النقطة لابد من أن نقر للشاعر القديم بقدرة فنية فذة، وهو يروض قافية صعبة، فيطنب حيث يجد الإطناب ضروريا، ويوجز حيث يجد اللمحة الدالة مغنية عن الإطناب: فها هو ذا يسهب ـ نسبياً ـ في وصف نمو العلاقة بين القواس البائس وقوسه منذ أن كانت فرعا في غابة، إلى أن أصبحت قوساً ذات وجود مستقل، وخصائص فارقة، ولكنه يؤثر الوقوف عند قيمتها العملية، على الوقوف عند قيمتها الجمالية، وإن كان لا يغفل هذه الناحية الثانية إغفالا تاما، ثم هو يسهب أيضا إسهابا نسبيا في ذكره مغالاة المشتري، بما يعرضه لها من ثمن:

فَقَالَ إِزَارٌ شَرْعَبِيٌّ وأَرْبَعٌ
مِنَ السَّيَرَاءِ أَوْ أَوَاقٍ نَوَاجِزُ
ثَمَانٍ من الكُورِيِّ حُمْرٌ كأَنَّهَا
مِنَ الجَمرِ مَا أَذْكى عَلى النارِ خَابِزُ
وبُرْدَانِ من خَالٍ وتِسعونَ درْهَماً
على ذَاكَ مَقْرُوظٌ من الجِلْدِ مَاعِزُ(١)

وهذا الإسهاب يشير إلى شيئين: إلى نفاسة القوس، وإلى الإيغال في الإغراء، ويقابل هذا الإسهاب إيجاز يصور انقياد القواس البائس للإغراء، وإكبار الناس للثمن المغري، و«ردّ الفعل» السريع للتخليّ عن القوس، وهي أشياء تمرّ مرَّ السحاب، لأن التركيز عند الشماخ لا يحاول أن يتجاوز القوس نفسها، إلا قليلاً.

وليست الحال كذلك تماماً لدى محمود شاكر، نعم تظل القوس مهمة، وتزداد أهمية حين تصبح رمزاً للعمل الإنساني المتقن، أو العمل الفني، ولكن المشاهد الإنسانية لا تقل عنها أهمية، ولهذا ـ وذلك موطن الاختلاف بين الشاعر القديم والحديث ـ لا يوجد مجال للإيجاز، لأن الغاية من التصوير قد اختلفت عما كانت عليه لدى الشاعر القديم، ومن ثم جاءت «القوس العذراء» ـ بعد المقدمات الضرورية ـ في أربع دورات مستطيلة، مترابطة مسترسلة تفضي كل دورة منها إلى الأخرى، وكان شكلها «سيمفونياً» في إطاره العام، مع «فواصل» من قصيدة الشماخ بين كل دورة وأخرى. تشبه نشيد الجوق في المسرحية اليونانية.

١ ـ وتعتمد الدورة الأولى ـ وهي تصور نمو العلاقة بين القواس وقوسه ـ على التجسيد ، فأكثر الصور التي تتعلق بالقوس في هذه الدورة، يمثل محبوبة تعلقت بها نفس صاحبها، فهي «غادة نشئت في الظلال» وهي «تجرد من ثياب العناد» وهي «ممشوقة القّد ريا» وهي كذلك «حرة

حصان» وهي بعد ذلك كله كائن سوي يتحدث إلى صاحبه ويحاوره، ويجري بينهما الغزل، ويزدهيه منها الجمال، وحسبي هنا إيراد بعض الامثلة مستمدة من مواطن متباعدة:

فلما اطْمَأنَّتْ على رَاحَتْيه
وعَيْنَاهُ تَسْتَرِقَانِ القُبلْ
رَقَاهَا فأحْيا صَبَابَاتها
بَتْعويذَةٍ منْ خَفيِّ الغَزَلْ
يُجَرِّدُهَا من ثِيَابِ العَنَاد
وَمنْ درْعِهَا الصَّعْبِ حَتى تَذلّ
فَلَمَّا تَعَرَّت لَهُ حُرَّةً
وَممْشُوقَةَ القَدِ رَيَّا جَفَلْ
تَبَيَّنَ إذْ رامَهَا حُرَّةً
حَصَاناً تَعِفُّ فَلا تُبْتَذَل
تَلِينُ لأنْبلِ عُشَّاقِهَا
وتَأبَى عَلَيه إذاً ما جَهِلْ
فَبَاتَا بَلْيلَة معْشُوقة
تُبَاذلُ عَاشِقَهَا مَاسَألْ
يُغَازِلُهَا وَهْيَ مُصْفَرَّةٌ
عَلَيْهَا بَقِيَّةُ حُزْنٍ رَحَلْ
تُنَاسِمُهُ عطْرَهَا وَالشَّذَا
شَذَا زَعْفَرانٍ عَتِيقِ الأجَلْ

وهذا التجسيد قد أصبح ضرورياً لتمييز الرمز وتوضيحه، ولكنه جاء من ناحية ثانية يخدم أمرين، يفرقان بقوة بين القصيدة القديمة والحديثة، وهما: مستوى التصوير وطبيعة الحوار، فبعد أن كان التصوير في قصيدة الشماخ عارضاً خاطفاً، أصبح هنا جزءاً أساسياً في بنية القصيدة، وبعد أن اقتصر الحوار لدى الشماخ على منظر البائع والمشتري، أصبح في «القوس العذراء» أوضح مظاهر الدرامية التي تتمتع بها القصيدة.

ويقسم الشاعر هذه الدورة في عدة وحدات، ويضع أبياتاً للشماخ فاصلاً بين كل وحدة وأخرى، ولكأن هذه الفواصل لا تمثل نقلة فنية جديدة، وإنما جاءت للراحة من الدوي الوتيري الذي يمثله بحر المتقارب.

٢ ـ وقد كان من حق الدورة الثانية أن تبدأ بمنظر السوق، ولكن الشاعر رأى ـ بعد أن كفل «لبطل» قصيدته هناءة العيش في ظل تلك المحبوبة ـ أن يوجه نظر ذلك البطل إلى ما تحدثه به الطبيعة والحياة العامة من نذر وإرهاصات، فهو في تنقله بصحبة قوسه قد شهد الديار التي خلت من سكانها، ورأى كيف يتفرق الأصحاب وتخر العروش، وهو قانع ـ دون كل ذلك ـ بصداقة خلته، ولكن ماذا بعد هذه الصحبة؟ ذلك هو السؤال الذي لم يجرؤ على طرحه، أو أخفاه تحت آني السعادة، حتى كان موسم الحج، فلبى النداء ومعه صاحبته، وهي ـ دونه ـ غير مرتاحة إلى الجو الذي وضعها فيه بل تحس بنذر وإرهصات، كالتي أحس هو بها على نحو غامض من قبل، وتبلغ القصيدة ذروتها في هذه الدورة على مختلف المستويات: فهي تستحوذ على البراعة في تصوير شخصية المشتري، وفي إجراء الحوار بين الشخوص، وفي تدخل القوس نفسها في هذا الحوار، وفي المناجاة الذاتية، وفي تصوير الزحام، والتدافع، والجلبة، واللغط، والإغراء بالبيع، في مشهد السوق بعامة! وهنا تحولت القصيدة إلى «مسرحية» قصيرة، لكنها مثقلة بدقائق التفصيلات، في تصوير متحرك، حافل بالحياة.

أما المشتري فيبدو عنصرا متقحما شديد الجرأة، رافع النظرة، خفي الحركة متظاهرا بالتثاقل لبيق اليد، شديد المحال، زليق اللسان ـ كذلك رآه الشاعر ـ أما القواس فرآه رجلاً له سورة من عقل، وعينان صافيتان، وعرنين أشم، وجبهة امرئ نبيل، مربب في النعمة، وكلتا الصورتين لا تناقض بينهما، فالأول يراه بحسب ما يستبطنه من نية، والآخر يراه مؤيدا بكل عوامل الإغراء، وهذه هي صورته كما رآها الشاعر:

فَمَا كَادَ حَتَّى رَأى كَاسِراً
تَقَاذفَ من شَعَفَات الجَبَلْ
يُدَانِي الخُطَا وَهْوَ نَارٌ تَؤُجُّ
ويُبْدي أنَاةً تكُفُّ العَجَلْ
ومَدَّ يَداً لاتراها العُيُون
أخْفَى إذَا ماسَرتْ من أجَلْ
وَنَظْرَةَ عَيْنٍ لَهَا رَوْعَةٌ
تُخَالُ صَليلَ سُيوف تُسَلّ

وتشترك في الحوار أحياناً أربعة شخوص: القواس والمشتري والقوس والعقل الباطن لدى القواس، وتذهب تحذيرات القوس لصاحبها هباء، فهي تقول له حين وضعها في كف سائمها:

دَعَتْ: ياخَليلي مَاذَا فَعَلْتَ؟!
أأسْلَمْتَني؟! لسِوَاكَ الهَبَلْ!!

وعندما عرض السائم أن يشتريها:

فَنَادَتْهُ ويْحَك! هذا الخَبِيثُ!

خُـــذْني إلَـيْـكَ وَدَعْ مـــا بَـدَلْ

ثم صاحت: **حذار، حذار، دهاك الخبل.**

وهنا تبدو صورة ثالثة للمشتري، فهو خبيث - في نظر القوس - ماكر ساخر تنضح يده بالمكر، وفي وسط الزحامين: زحام السوق وزحام الهواجس في نفس القواس، ضاع صوت القوس، وأخذ الصراع يعتلج في نفس ذلك البائس الفقير: إنه لا يصدق أن كل هذا الذي بذل سيكون من نصيبه ثم إنه لا يكاد يصدق أنه قادر على أن يتخلى عن صاحبته، ويستمر منظر الصراع حتى تكون الغلبة لقوة المال عن طريق الإيهام الذاتي، إذ الغني - بحسب مفهوم الجاهليين - «رب غفور» والمال يعلي السفل، ويقول البائس لنفسه: نعم، لم لا آخذ بها ما بذله هذا الرجل الغني، فأنا لا أبيع يدي، التي أبري بها القسي، وإنما أبيع قوسا أقدر على بري مثلها في مقبل الأيام.

وفي المَالِ عَـوْنٌ عَلى مِـثْلِهـا
وفي البُـؤْسِ هَوْنٌ وذُلٌ وقُـلّ

وبينا الرجل ذاهل عما حوله، غارق في لجة الحيرة، تسللت إليه أصوات الناس في السوق، وبينها صوت خافت يهيب به أن «خذني إليك» وبين العجيج والخوار والصهيل، والزجل والوعوعة والضوضاء العامة، يسمع الجماهير تقول له «بع» وتختلط الأصوات على النحو الآتي (وما بين معقفين هو صوت القوس):

[أغـثْـني أجَلْ] بَاعَ! مـاذا؟ أبَاعَ؟!
نَعَمْ بَاعَ. قَدْ بَاعَ. حَقاً فعل؟
[أغـثْني أغـثْني نَعَمْ] قد رَبحْتَ
بُورِكَ مـالكَ، أيْنَ الرَّجُلْ؟
مَضَى.. أيْنَ.. لا لَسْتُ أدْري.. متى؟
لَقَدْ بِعْتَ؟.. كَلاَّ وَكلاَّ.. أجلْ
لَقَدْ بِعْتَ! قَدْ بِعْتَ! كَلاَّ كَذَبْت
لَقَدْ بِعْتَ!. قَدْ بَاعَ. ويَحي أجَلْ
لَقَدْ بِعْتُهَا.. بِعْتُهَا.. بِعْتُهَا..
جُزِيتُم بَخَيْر جَزَاء أجَلْ
أجلْ بِعْتُهَا.. بِعْتُهَا.. بِعْتُهَا..!!
أجَلْ بِعْتُهَا! لاَ، أجَلْ، لا، أجَلْ

وهكذا انضم صوت الجماهير إلى صوت المال، في التغلب على مقاومة نفس ضعيفة إزاء الإغراء، فردية مغلوبة على أمرها إزاء الجموع، وحتى اللحظة الأخيرة يظل الرجل في ذهول، لا يعرف أباع القوس أم لم يبعها؟ وكأن البيع تم وهو مسلوب الإدراك والإرادة معاً، أو كأنه تمّ وهو «منوّم».

وهذا التنويم يستدعي صحوة، ستكون هي موضوع الدورة الثالثة. وقبل أن ننتقل إلى تلك الدورة، لابد من أن نتوقف عند دور الجماهير في عقد تلك الصفقة: أترى هذه الجماهير تكنُّ في أعماقها تبعية لذلك الغني، وتأخذ جانبه ضد القواس الفقير؟ رغم أن الشاعر يتوقف عند الجانب السلبي في بني الإنسان - لأنه يرى بعيني ذلك القواس الذي يتساءل «**أين المفر من بشر كذئاب الجبل**»، ويرى في الناس «**ثعالب نكر تجيد النفاق**» - رغم ذلك كله، فإن الشاعر لا يحمل الجماهير إثم الإعانة على التخلي عن الفن، فيما أظن أو بعبارة أخرى إنه لايجعل دور الجماهير الوقوف ضد الفن، وإنما يرى تلك الجماهير صورة أخرى عن القواس البائس، فهي مثله يستهويها إغراء الثراء، ولا تستطيع مقاومته، لأنها أيضا في معظمها مشمولة بالبؤس، تبهر أنظارها حمرة الدنانير إذا قيض لها أن تراها.

٣ - وليس من الطبيعي أن يجيء الصحو - في الدورة الثالثة - دفعة واحدة ، إنه صحو على فاجعة، فإذا أدرك المرء أبعاد تلك الفاجعة، وقع من جديد تحت وطأتها، وعانى انتكاسة مريرة، ولهذا فإن قوّاس محمود شاكر - مثله مثل قواس الشماخ - حين ردد لنفسه «أجل بعتها.. بعتها»، فاضت دموعه لذّاعة كمثل الحميم، وأغضى مطرقا، لأن ثقل الفاجعة بهظه، فأقام في موضعه متخاذلا لا يتحرك، وأصداء «بع. بع» تتردد في أذنه، وتخالف الناس في تقدير ما أقدم عليه:

فمِنْ قَائل: فَازَ، رَدَّتْ عَلَيْه
قَائلَةٌ: لَيْتَهُ ما فَعَلْ
وَمِنْ هَامِس وِيْحَهُ مادَهَاهُ!
وَمِنْ مُنْكِر كَيْفَ يَبْكي الرَّجُلْ؟
وَمِنْ ضَاحك كَرْكَرَتْ ضَحْكَةٌ
لهُ مِنْ مَزُوح خَبِيث هَزَلْ
وَمِنْ سَاخِر قال: يا آكِلاً
تَلَبَّسَ في سَمْتِ مَنْ قَدْ أُكِلْ
ومِنْ بَاسِط كَفَّهُ كالمُعَزي
وهَيْنَمَة غَمْغَمَتْ لَمْ تُقَلْ
ومِنْ مُشْفِق سَاقَ إشْفَاقَهُ
وَوَلَّى، ومُلْتَفت لم يُوَلّ

وأخذت الإفاقة البطيئة تدبّ في أوصاله، فإذا الناس قد فارقوا السوق، ولم يعد يرى منهم سوى أشباحهم، ورأى في جنبات الطبيعة أغربة وحجلاً وهاماً، بعضها يطير

وبعضها جاثم، وحيات وضباعاً وضباباً، تمارس حياتها في تلك الجنبات، وحل محل المنظر الإنساني السابق منظر حيواني، لتقترن الإفاقة بالوحشة والوحدة والضياع، ويبسط كفيه ليرى ما قبضه ثمنا لقوسه فيتأكد لديه أنه باعها: «**بقاء قليل ودنيا دول**» وتتضاءل في نظره قيمة هذا الذي كان من قبل مغريا إزاء ما ضاع من يده، فيلقي إلى الثرى دون احتفال كل ما قبضه ثمنا لقوسه، ويمضي في طريقه كئيباً ذليل الخطى.

٤ ـ وتكون الدورة الرابعة عودة إلى الحلم في حال اليقظة، يتأمل يده التي كان يبري بها القوس، فيجدها نحيلة راجفة، ويهيم في الماضي ـ حينما كانت تلك اليد قوية واثقة ـ فيرى عهد الفتاء والضرب في الأدغال، وفجأة أطلت له من وراء الغصون عذراء، كالتي تخلى عنها قبل قليل:

رَأى غَـادَة نُشِّـئَتْ في الـظِّلاَل
ظلاَل الـنعـيم عَـلَيْـهـا الكـلَلْ
عَـروسٌ تمَـايَلُ مَـخْـتَـالة
تُـمـيتُ بِـدلّ وتُـحْـيي بِـدَلْ
وَنادَتْـهُ فـارَتدَّ مُـسْـتـوْفَـزاً
بِـجُـرْحَ تَـلَظَّى ولَـمْ يَـنْدَمـلْ
أفِقْ قَـدْ أفـاق بهـا العَـاشِـقُـون
قَـبْلَـكَ بَعـد أسىً قَـدْ قَـتَلْ
بِـصُـنْـع يَـدَيْـك تَـرَانـي لَـدَيْـكَ
في قَـدِّ أخْـتـي ونَعْمَ الـبَـدَلْ

ولكنه يجيبها قائلاً:

صَـدَقْت صَدَقْت وأيْـنَ الشبَـابُ؟
وأيْـنَ الـوُلـوعُ؟ وأيْـنَ الأمـلْ؟

لقد كشف محمود شاكر عن النهاية الفاجعة، في هذا الصراع الإنساني على ظهر الأرض، ولكن نوازعه الدينية أبت عليه أن يقف عند الحسرة المطلقة والإذعان للخيبة المريرة، فاشتق معنى تفاؤليا دقيقا في معاودة الصراع الكامن في «سر اليدين» ذلك السر الذي وضعه فيهما «**فاطر النيرات وباري النبات ومرسي الجبل**» وليت محمودا لم يصف في الدورة السابقة كيف حالت يد الفنان «**سحق غشاء على أعظم**» ـ يد قد تسرب منها السر فلا يستعاد، رغم كل ما أودعه في الخاتمة من تفاؤل: هل يستطيع الفنان حقاً بعد أن حطم فنه أن يستعيده؟ هل يتأتى للتوحيدي الشيخ أن يعيد كتابة الكتب التي حرقها، تلك هي المعضلة التي ماتزال في واقع الإنسان تبحث عن حلّ، أعني هل يمكن استبقاء «جذوة الإبداع» بعد ضياع الشباب والولوع والأمل. نهاية رومنطيقية ما في ذلك ريب، ولكن مأساويتها ملطفة ببعض العزاء.

●●●

هذه صورة مقاربة لا تدعي الوفاء التام بما تؤديه قصيدة «القوس العذراء» في شكلها الكليّ، ومقدمتها وخاتمتها النثريتين، وهي قصيدة نشرت سنة ١٩٥٢م، وجاءت كما يمكن أن تدل عليه دوراتها الأربع طويلة، تحليلية في رومنطيقيتها، معتمدة على استخدام الرمز (وهو أمر لم يكن مألوفا كثيرا من قبل). ذات روح درامية حتى لتتحول بعض مقاطعها إلى أصوات متعددة، وكل هذه الخصائص كانت ترشحها لأن تكون معلما على طريق الشعر الحديث، أو مايسمى بهذا الاسم، فلم لم تصب هذا الحظ؟ ولم لم تثر كثيرا من الاهتمام يوم نشرت(٢) ولعل ذلك كان في العام نفسه الذي نشر فيه السياب قصيدته «المومس العمياء»؟

دعنا نعلل ذلك بذكر أسباب قد تكون مقنعة على المستوى العقلي، ولكنها لا تكاد تفعل ذلك إذا هي لامست الضمير النقدي، فنقول: لقد نشرت هذه القصيدة في مجلة لم تكن ذات قراء كثيرين، فلم يتعرف إليها النقاد، إلا بعد أن وضعت في صورة كتاب، وكان الشعر الحديث قد قطع شوطاً بعيداً مستقلا عنها وعن تأثيرها، وكان طولها حائلا دون توفير الصبر اللازم لجلاء ما تنطوي عليه وما ترمز إليه، صحيح أن السياب ـ أبرز الشعراء المحدثين وأرسخهم قدما ـ حاول أن يربط بين الحداثة والطول في قصائده، ولكنه أخفق في ذلك، وعاد إلى القصيدة المتوسطة، حين وجد أن القراء لا يقفون عند أمثال «المومس العمياء» و«فجر السلام» من قصائده الطويلة. أضف إلى ذلك كله، أن القصيدة رغم استغنائها عن خاتمتها النثرية، لا تستطيع أن تستغني عن مقدمتها النثرية، بل تكاد تكون تلك المقدمة جزءاً أصيلا

■ بدر شاكر السياب

■■ ضل الشعر الحديث كثيراً حين لم يهتد إلى «القوس العذراء»، وسار النقد في ذلك الطريق المضلة حين أغفلها.

منها، وهذا شيء قد أفقدها الاستقلال، وجعلها مفتقرة إلى فاتحة شعرية ليتم لها الشكل الشعري الكامل، وليس أدل على ذلك من التجارب الأولى التي افتتحت بها القصيدة، معتمدة على تحويلات الشاعر، فكأن القصيدة نظمت مرتين، مرة في شكل موجز، ومرة في شكل مطول، مما قد يوحي بحيرة إزاء الشكل، وانبتار في المقدمة. ثم إن الشعر الحديث كان تجربة في الاستغناء عن التناسب العروضي بين الشطرين، وعن تردد القافية على نحو لا يختل، وهذه القصيدة لا تقف من هذه الناحية في صف الشعر الحديث، لأنها التزمت بحرا متساوي الشطرين، وحافظت على وحدة القافية، كذلك ـ يقول المحاور ـ طرحت هذه القصيدة مشكلة هامة، هذا حق، إلا أن تلك المشكلة لم تكن يوم أن أخذ الشعر الحديث بالظهور، هي المشكلة الكبرى، ذلك لأنها على أهميتها تدخل أحيانا في حيز ميتا فيزيقي، فإن لم يكن الأمر كذلك، فقد طال طرحها دون الوصول إلى حل، فما هي جدوى إثارتها من جديد، مادمنا نعلم مسبقا أنها لن تجد حلا، لقد عالجت القصيدة مشكلة العلاقة بين الفنان وفنه، وهي مشكلة تدل على «ترف» فني، لأن ما كان مطروحا في ساحة الشعر يومئذ، هو مثلاً، بؤس القواس لا علاقته بقوسه، والحل لتلك المشكلة لا يتم ببيع القوس، وإنما بالثورة على أسباب ذلك البؤس، خذ مثلا قصيدة «المومس العمياء» للسياب، تجد أن أهميتها تنبع من مشكلات اجتماعية خلقت وضعا غير طبيعي، ولذلك فإنها تحرك أوتارا معينة في المجتمع، لا تقدر على تحريكها «القوس العذراء»، ومن الإنصاف ـ كذلك يضيف المحاور أن قصيدة «القوس العذراء» قد استخدمت الرمز على نحو فذ لم يكد يحسنه الشعر الحديث إلا بعد تمرس طويل، واقعا في ذلك في حيز الصواب أو الخطأ حسبما تأتي به التجربة، ولكنها كشفت أبعاد هذا الرمز قبل الدخول فيه، لأن مقدمتها النثرية تكفلت بذلك كله، فأفقدت القارئ والناقد ـ يومئذ ـ لذة المفاجأة والكشف، أما روحها الدرامية فهي فيها نسيج وحدها، وربما لم يستطع الشعر الحديث ـ حتى اليوم ـ أن يدعي مقاربتها في ذلك إلا حين يتحول الى مسرحيات خالصة

قد يقال كل ذلك، وقد يضاف إليه أشياء أخرى تزيده قوة في الحوار، ولكن لاريب عندي في أن الشعر الحديث قد ضل كثيراً حين لم يهتد إلى «**القوس العذراء**» وأن الناقد الحديث قد سار في تلك الطريق المضلة نفسها حين أغفل تلك القصيدة. وليس من التجني أن أقول إن الشعر الحديث كان يعشو إلى أضواء خادعة حين انقاد وراء التأثر بشعر أجنبي ورموز غربية، ولم يستطع أن يستكشف أدواته في التراث كما فعلت «القوس العذراء»، ولكن أنى له أن يفعل وهو وليد اجتهاد بضعة من «تلامذة المدارس» الذين شدوا شيئا من الشعر الانجليزي، فظنوا أنهم وقعوا على كنز دفين ليس في أدبهم نظيره، وأظن أكثر من بقي منهم حيا حتى اليوم لا يفهم قصيدة الشماخ إن أتيح له أن يقرأها فكيف بأن يستخلص منها رموزا لمفهومات معاصرة؟! وقد يكون هذا الكلام قاسيا ولكن الحق لا يعني المجاملة واللين. ذلك هو شأن الشعراء، أما النقاد فشأنهم أعجب، ذلك لأنهم ذهبوا يبحثون عن بواكير الحداثة في أمثال «بلوتولاند» وهي مثال الفهاهة والفجاجة وقلة الذوق والكفر بالتراث وباللغة، وأغفلوا «**القوس العذراء**».

وأغلب الظن أن الشاعر نفسه ملوم: ذلك أن الناس في هذه الأيام لايدينون إلا للمذهبية، وهي تعني مداومة الشاعر على موالاة اتجاه معين، ونظم قصائد في ذلك الاتجاه، واحدة تلو الأخرى، ولكن محمود شاكر سكت بعد هذه القصيدة، ولو شفعها بنظائرها لرسخت قدمه في مذهب شعري جديد. لماذا سكت محمود؟ أكانت القصيدة إرهاصاً بفقدان الشباب والولوع والأمل، وبأن اليد التي ولدت قوساً لا تستطيع أن تلد قوساً أخرى؟ إن كان الأمر كذلك فهو عجيب حقا، وأعجب منه حالي حين أسأل نفسي لماذا أرجأت الكتابة عن هذه القصيدة طوال تلك الأعوام؟!!

■■ هوامش:

* عن كتاب «دراسات عربية وإسلامية» مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر، محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين.. من ص ٣ إلى ص ١٥ ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

(١) أي أن المشتري يدفع ثمناً للقوس إزاراً شرعبياً وأربعة من الثياب السيراء المخططة أو ثماني أواقٍ من الذهب الأحمر تشبه في حمرتها أرغفة الخبز، وبردين من صنع بلد الخال رقيقين نفيسين، وتسعين درهماً. وفوق ذلك كله جلد ماعز مدبوغاً بالقرظ.

(٢) عثر لص ظريف على هذه القصيدة في الأيام الأخيرة، فادعاها أو إدعى معظمها لنفسه أو نشر ما اجتزأ منها في الصحف، إعتماداً على أن القصيدة مجهولة. وإنما أسميه ظريفاً لأنه كان يدرك قيمتها الفنية حين ادعاها.